

أصول الحضارة في الشرق الأدنى
وتاريخها المبكر

الفصل الثالث

قصة مصر

اقسم الحضارات وعصر بناء الأهرام

بدء التنظيم الإداري في مصر

وإذ نعود الآن لنستأنف الحديث عن التقدم الإنساني في العصور المبكرة في الشرق الأدنى، فإذا بدأنا بمصر، نذكر كيف تتبعنا صيادي شمال أفريقيا وهم يهبطون إلى وادي النيل عندما أخذت الهضبة في الجفاف، ونذكر أيضاً كيف بدأ هؤلاء الصيادون في الانتقال إلى حياة مستقرة وأخذوا يربون الماشية ويزرعون الأرض

ولما كان الماء أساسياً لنمو الحب في الحقول، ومصر بلد ينعدم فيه المطر، فإن المصريين الأوائل كانوا مضطرين لعمل جهاز بسيط ليرفعوا المياه به من النهر أو من القنوات التي تستمد مياهها منه حتى تظل الجداول في الحقول مملوءة بالمياه ويحىء اليوم الذي ينضج فيه ما فيها من حبوب . وما زال المصريون في الوقت الحاضر يستعملون هذه الآلة لرفع المياه وهي الآلة نفسها التي ورثها أجدادنا نحن معشر الأمريكيين، وكانت تستعمل كثيراً من الأوقات في نيو انجلاند^(١) لنزح آبار المياه .

إن التربة السوداء التي يأتي بها النيل من هضبة الحبشة عظيمة الخصب، وكان النيل في كل صيف يرتفع فوق مستوى شاطئيه ويغطي الأرض المستوية ويظل فترة كافية لترسيب طبقة من تلك الرواسب . وجاء اليوم الذي ملأت فيه تلك الرواسب أيضاً الخليج الكبير الذي كان في آخر النهر وكوّن ما نسميه الآن بدلتا نهر النيل .

١ - الولايات التي على الشاطئ الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية



شكل : ١٨ - الشادوف المصرى - أقدم أنواع الاجهزة لرفع مياه الابار - يستعمل لرى الحقول .

يقف الرجل الذى فى أسفل الصورة فى الماء ممسكا بدلو المصنوع من الجلد (أ) فى الصورة ونرى فوقه قائم الشادوف (ب) وفى نهايته كتلة كبيرة من الطين لتثقيله وايجاد التوازن . وهناك قائم آخر لتثبيت الشادوف فيه (د) . ويرفع هذا الرجل المياه ليضعها فى حوض صغير من الطين (هـ) . ونرى فى الصورة أيضا رجلا آخر يرفع المياه بنفس الطريقة من الحوض (و) الى حوض أعلى (ز) . وفى أعلى الصورة رجل ثالث (ر) يرفع المياه من الحوض الاوسط الى الحوض الاعلى (ح) الى جانب الجزء العلوى من الشاطىء ومنه تسير المياه فى القنوات المتفرعة فى أرجاء الحقول .

ويحدث ذلك أثناء انخفاض المياه ويستمر أمثال هؤلاء الناس يرفعون المياه من أسفل الى أعلى على ثلاث درجات ، يعملون ليلا ونهارا دون انقطاع مدى مائة يوم فى كل عام

وفي هذه الدلتا ومعها باقى الوادى حتى الشلال الاول ، اثنى عشر ميلا مربعا من الارض الصالحة للزراعة ، أى ما يعادل مساحة ولايتى ماساشوسيتس وكونيتيكت مجتمعين تقريبا^(١) ولكن المساحة التى كان من الممكن زراعتها فى العصر النيوليتى كانت أقل من هذه المساحة بكثير لأن الوادى كان فى تلك الأيام مليئا بالمستنقعات . ولم يكن من الميسور زراعة بعض المحاصيل إلا فى أراض متفرقة هنا وهناك تفصلها تلك المستنقعات ، وكانت سرعة تيار النهر وقوته من العوامل التى جعلت زراعة شواطئ النيل عملا صعبا ، ولكن الأمر كان يختلف فى الدلتا ، فهناك تفرع نهر النيل إلى نهيرات صغيرة تيارها بسيط . وكان من السهل استصلاح المستنقعات لتصبح أرضا زراعية .

ومع مضى الزمن كان سكان الدلتا أسبق فى الحضارة من سكان الصعيد ، وكان هذا السبق فى الدلتا سببا فى تنظيم أهلها لأنفسهم وتعاونهم فيما بينهم . وانتهى الأمر بأن أصبحت لهم حكومة بعد أن مضى عليهم وقت غير قليل عندما أحس السكان بحاجتهم إلى زعيم ، لأن الناس عادة يحسون بضرورة وجود من يتزعمهم عندما يحتاجونه لتعاونهم فى تنظيم الدفاع عن أنفسهم إذا ما هاجمهم عدو . ولكن زعامة مثل هذا الرئيس المحارب لم تضمن دائما حسن الإدارة ، لأنه من الأفضل لمثل هذه الجماعة أن تجد زعيما ليحاسب من عيנם ليعنوا بأمر جداول الرى والترع ويرشدوهم إذا احتاجوا إلى إرشاد . فإن فيضان النيل كان يملا الترع بالطمي ، وكان من الضروري على سكان أى مجموعة من القرى أن يتعاونوا فيما بينهم ويذهبوا لحفر تلك الترع وتطهيرها ، فإنهم يعلمون أنهم إذا أهملوا ذلك امتنع جريان الماء

١ - ولايتان من ولايات شرق أمريكا ومن أهم ولايات نيو انجلترا وأكثرها فى الأهمية الصناعية والتعليم . وتبلغ مساحة كونيتيكت Connecticut ٥٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٧٢٨٠ ٢٠٠ نسمة . وتبلغ مساحة ماساشوسيتس Massachusetts ٨٢٣٧ ميل مربع وعدد سكانها ٤٧٠ ٥٠٠ نسمة (المغرب)

إلى الحقول التي يعتمدون عليها في الحصول على الحبوب ولن يكون هناك محصول ، أى أنه لن يتيسر لهم الحصول على الخبز. وكان الإشراف على مثل هذا العمل محتاجاً إلى زعيم ليس محارباً فحسب بل تتوافر فيه صفات كثيرة ، وانتهى الأمر بأن شخصاً ذكياً شجاعاً أصبح فى مكان الزعامة بين كل مجموعة من قرى الدلتا .

ذلك ما كان يحدث قبل سبعة آلاف عام على وجه التقريب ، ومن الجائز أن واحداً من زعماء مجموعات القرى فى الدلتا أصبح زعيماً محلياً وأصبح مشرفاً على أعمال الري فى منطقة كبيرة . وكان الناس فى تلك المنطقة مجبرين على أن يقدموا له فى كل موسم جزءاً من الحبوب أو السكتان الذى جمعه من الحقول ، وإذا ما قصر أحدهم فى ذلك فإن الزعيم يأمر بمنع جريان المياه إلى حقله ، بل وربما حدث أكثر من ذلك وهو أن بعض رجال الزعيم يذهبون إلى هذا الممتنع لوضع الأمور فى نصابها ، وهكذا بدأت أقدم مظاهر الضرائب وهى النواة الأولى فى وجود الحكومة .

ويكاد يكون من المحقق أن كثيراً من أمثال هذا الزعيم وطفدوا سلطانهم فى الدلتا إلى أن تمكن واحد منهم فأخضع الزعماء الآخرين الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم وجعل الدلتا كلها مملكة واحدة ، وهى ما نطلق عليها اسم مصر السفلى لأنها واقعة فى آخر مجرى النيل . وحدث بعد ذلك أن قامت مملكة أخرى فى الجزر الواقعة جنوب الدلتا وشملت وادى النيل أى من قبة الدلتا حتى الشمال الأول وهى منطقة تمتد أكثر من ٥٠٠ ميل ونطلق عليها اسم مصر العليا .

كانت هاتان المملكتان قائمتين منذ سبعة آلاف عام أى حوالى عام ٥٠٠٠ ق . م . ، وظلتا متجاورتين عدة قرون . وكانت الحياة إذ ذاك شبيهة إلى حد ما بحياة الهنود فى أمريكا — قبل أيام خرستوف كولومبوس — الذين كانوا يعتمدون اعتماداً تاماً على الزراعة فى حياتهم .

وكان الملك يعيش في كل من هاتين المملكتين في عاصمة ملكه، ولكن تلك المباني التي أقامها الملوك كانت بسيطة وأقل من أن تقاوم الزمن فزالت، ولم يصبح لها أثراً . وكان الناس يعيشون في قرى على طول النهر لا تزيد عن عدد من الأكواخ والمنازل الصغيرة المبنية من الطين شبيهة بما كان قائماً منها قبل ذلك العهد . وقد زالت أمثال هذه المباني بالطبع، ولكن هؤلاء الناس اعتادوا أن يدفنوا موتاهم على حافة الصحراء خلف القرى التي كانوا يعيشون فيها . كانوا يدفنون هؤلاء الموتى في حفر غير عميقة وأثبتت الحفائر التي قام بها الآثريون في تلك الجبانات أن المعدن لم يستعمل إلا قليلاً . وذلك يرجع إلى أن صناعة التعدين لم تكن معروفة لهم، ولهذا لم يستطيعوا الحصول على كميات كبيرة منه . ومن ناحية أخرى لم يكن هناك أحد يعرف كثيراً عن صناعة شيء من ذلك المعدن . ومن المعروف أن المعدن لا يلعب دوراً هاماً في حياة الإنسان اليومية . إذا اقتصر استعماله على صنع بعض أدوات صغيرة مثل دبائس الزينة أو بعض حبات تتخذ لصناعة عقود النساء أو صنع أزميل من وقت لآخر ، ولذلك استمر الناس يستعملون الأدوات والأسلحة المصنوعة من الحجر كما كانوا يفعلون من قبل .

ومن المحتمل جداً أن الصلة التجارية كانت كبيرة بين المملكتين لأن النيل يوحد بينهما . ومن المحتمل أيضاً أنه حدثت فترات قامت فيها الجفوة مكان الود . وأخيراً حوالى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد قام ملك قوى من ملوك الوجه البحرى (مصر السفلى) وخرج إلى الوجه القبلى (مصر العليا) غازياً وانتصر على مملكته . ولسنا نعرف حتى الآن اسم هذا الملك الذى تم على يديه تحقيق أول تملكة تجمع بين شمال مصر وجنوبها ، ولسنا نعرف الاسم الذى أطلقه على تلك المملكة الجديدة ولسكننا نسميها اصطلاحاً باسم ، الإتحاد الأول ، ومن الجائز أن تلك المملكة

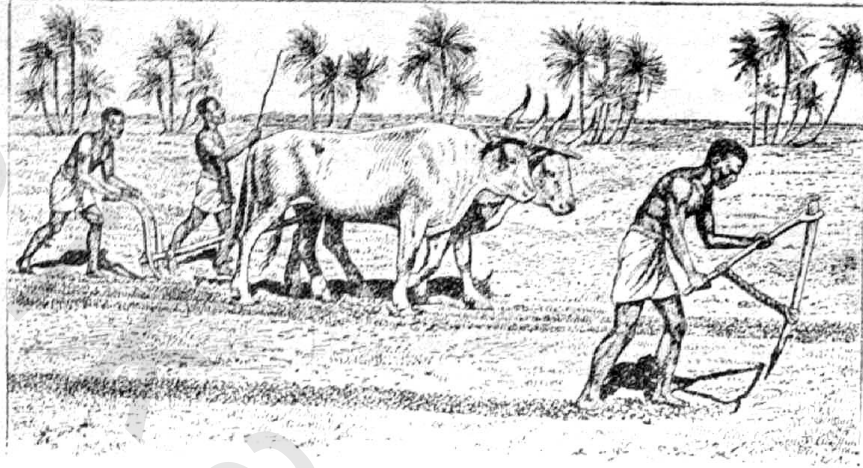
استمرت بضع قرون من الزمان . حكم أثناءها كثير من الملوك كانوا يعيشون في هليوبوليس ، مدينة الشمس ، التي كانت العاصمة الأولى لمصر الموحدة . كانت هذه المدينة بحكم موقعها مركزاً وسيطاً بين المملكتين وظلت دائماً أكثر المدن المصرية تقدساً وأهمية .

قيام الحضارة المصرية المبكرة على أساس الزراعة

أصبحت مدينة هليوبوليس أثناء «الاتحاد الأول» مركز الحياة زاهرة لم تعرفها من قبل ، وبدأ الناس يكوّنون ثروات منقولة لاجهد لهم بها . كانت هذه الثروة هي الحبوب التي تدفقت على العاصمة من الحقول الكثيرة التي لم يعرف الانسان لها مثيلا قبل ذلك اليوم ، وهي حقول انتشرت في أكثر أرجاء مصر وسهل عليهم زراعتها لاختراعهم للمحراث بعد أن كانوا لا يعرفون غير الفأس . وكان حرث حقل من الحقول بفأس خشبية عملا مضنيا وبطيئا مما جعل مساحة الأرض التي استطاع هذا الانسان زراعتها بالحبوب محدودة ، وأخيرا جاء اليوم الذي أدرك فيه أحد المصريين المهرة أنه إذا أطال يد الفأس طولا كافيا يمكنه أن يربط طرفها إلى قائم يثبتته بين رأسى ثورين ، فإذا أضاف إلى تلك الآلة الجديدة قائمين عموديين فإنه يستطيع أن يحرك هذا المحراث الجديد ويوجهه كما يشاء عندما يحره الثوران أمامه في الحقل ، ومنذ ذلك الوقت تطورت حياة هذا الفلاح من ثقافة الفأس إلى ثقافة المحراث .

ويمكننا أن نسمى هذا الاختراع بأنه أول اختراع ميكانيكي للزراعة . فقد كان بداية لعصر جديد ، وأصبح الإنسان قادرا على تسخير الحيوان ، وبعبارة أخرى أمكن لهذا الإنسان أن يحصل على طاقة أكبر من القوة الإنسانية وإستعمل هذه الطاقة للمرة الأولى في زراعة الحقول .

وكان من أثر هذا الاختراع المؤدى إلى إنماء مقادير الغذاء بين الأقدمين شيئا باستعمال الآلات الميكانيكية الحديثة وأثرها في إنماء الثروة وتقدم الأمم في العصر الحالى وخاصة فى القارة الأمريكية . ويمكننا أن نشبه توسع مصر فى إنتاجها فى عهد «الاتحاد الأول» ، بما حدث فى الولايات المتحدة عندما توسعت وزادت فى أراضيها



شكل : ١٩ - المحراث والفأس التى كانت أصلا له

يوضح هذا الرسم - وهو مستمد من منظر مصرى قديم - الفارق الكبير بين الاثنين . كان المحراث أقوى وأسرع . وكان فى استطاعة من يستعمله أن يحراث فداناً فى اليوم الواحد ، بينما لم يستطع من يستعمل فأسه - اليوم كله - أن يعزق أكثر من ربع فدان عزقا بسيطا لا يؤثر الا على القشرة العلوية من الأرض . وعلى هذا الأساس كان فى استطاعة المصرى الذى يستعمل المحراث أن يزرع أربعة أمثال مساحة الأرض التى كان يزرعها من قبل ، وكذلك تضاعف محصوله أربع مرات وتضاعف بمثل هذه النسبة المحصول من الحبوب وما يدفعه للملك من ضريبة

المنزعة ، وكان أثر زيادة الثروة سواء بالنسبة للحكومة أو للأفراد عاملا مهما في تقدم الحضارة المصرية . ولم يكن هذا الإيراد السنوى من الحبوب سببا في زيادة الثروة فحسب بل يسر لهؤلاء القدماء أمر إقراض الآخرين جزءاً من هذه الثروة المنقولة إذا زادت عن حاجتهم ، وبمكنتهم كذلك من دفع الضرائب وتسوية ماعساد أن يكون عليهم من ديون . ومن السهل أن ندرك أن وجود مثل هذه الثروة المنقولة - في وقت لم يعرف فيه الإنسان استعمال النقود - كان عاملا مهما ذا أثر كبير في حياتهم وأصبحت هذه الزيادة الكبيرة في مساحة الأراضي المنزرعة سببا في أهمية وجود الحكومة المركزية للبلاد كلها أكثر مما كانت عليه من قبل لأن زيادة مساحة الأراضي تطلبت زيادة كمية المياه لرى الحقول . وهكذا تغيرت النظم المحلية البسيطة الخاصة بالرى وأصبحت جزءاً من نظام يجمعها كلها . نظام وطنى كبير له مركز إدارة في العاصمة ، وأصبحت إدارة الرى التى تركزت فى أيدي موظفى الملك أول دولا ب إدارى كبير فى تاريخ الإنسانية ، وله أثر واضح فى تنفيذ الأعمال الأخرى ومن السهل أن ندرك أهمية الزراعة فى حياة المصريين القدماء أثناء فترة « الاتحاد الأول » من الأسماء التى أطلقوها على فصول السنة ، فإنهم قسموا السنة إلى ثلاثة فصول ، أولها « الفيضان » ثم « البروغ » . ومعناه ظهور أو خروج الحقول من مياه الفيضان التى كانت تغطيها — وأخيرا فصل « الحصاد » . وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بين قوم كانت تدور حياتهم حول الرى والعمل فى الحقول حتى يقسموا سنتهم إلى فصول تشير إلى الفيضان وما تصبح عليه الحقول بعد ذلك . وكل فصل من هذه الفصول الثلاثة يحتوى على أربعة أشهر حسب النظام القمري ، وشابه المصريون فى هذا الشأن جميع الشعوب القديمة الأخرى لأن القمر هو أسهل الوسائل فى حساب الزمن ، مثلهم فى ذلك مثل الهنود الأمريكيين الذين كانوا يحسبون أيضا وقتهم بالشهور القمرية أى الفترة بين الهلالين . فإذا أراد أحدهم مثلاً أن يقول إنه قام برحلة استغرقت شهرين فإنه يصفها بأنها استغرقت قرين .

ولكن الشهر القمري غير ثابت في عدد أيامه ، فتارة يكون ثلاثين يوماً وأخرى تسعة وعشرين يوماً ، وفي الوقت ذاته نرى مدار السنة خاضعاً للنظام الشمسي ، ولهذا لا يصلح الشهر القمري وحدة لتقسيم الثلاثمائة والخمسة وستين يوماً إلى أقسام متساوية . ولكن رغم الخطأ الواضح له والذي كان يسبب له كثيراً من المتاعب فإن الشهر القمري كان على وجه التقريب جزءاً من اثني عشر من تلك السنة ، فاعتبر المصري أن السنة تحتوي على اثني عشر شهراً .

وأثبت المصريون أنهم قوم عمليون أكثر من جيرانهم من شعوب العالم القديم . فمن المرجح جداً أنهم عرفوا قبل ، الاتحاد الأول ، عدد أيام السنة ولكنهم لم يعرفوا إذ ذاك أن السنة لم تكن ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً بل ينقصها جزء بسيط لا يتجاوز ربع يوم آخر . وإزاء ذلك لم يكن أمامهم وسيلة لتقسيم السنة تقسماً أكثر دقة إلا ترك نظام الشهر القمري وما يكتنفه من صعاب ، ووجدوا أنه من الأفضل لهم أن يخترعوا لأنفسهم تقويماً آخر احتفظوا فيه بعدد الشهور الاثني عشر ، ولكن عدد أيام كل واحد منها يجب أن يكون ثلاثين يوماً ، وكانت هذه السنة ذات الثلاثمائة والستين يوماً سنة قصيرة أضافوا إليها خمسة أيام أخرى اعتبروها عيداً يحتفلون به نهاية كل عام . وبذلك تصبح السنة ثلاثمائة وستين يوماً كما كانت من قبل .

يساعدنا علم الفلك على أن نعرف الوقت الذي تمكن فيه المصريون من الوصول إلى هذا الكشف ، ويحدد السنة بأنها كانت عام ٤٢٣٦ قبل الميلاد^(١) ، ولهذا يمكننا القول أن اختراع هذا التقويم في القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد كان

١ - كان عام ٤٢٤١ ق م هو التاريخ الذي حسبته علماء الفلك بأنه التاريخ الذي توصل فيه المصريون إلى اختراع تقويمهم ، ولكن اتضح الآن أن هناك خطأ بسيطاً في ذلك الحساب وأصبح التاريخ الصحيح هو عام ٤٢٣٦ ق م

أول حادث محدد التاريخ في حياة الجنس البشرى ، وبالرغم من مضي ستة آلاف عام فإننا مازلنا نستعمل في حياتنا التقويم المصرى القديم بعد أن أدخل عليه الرومان مع الأسف الشديد بعض تغييرات في الشهور فجعلوا بعضها يزيد في عدد أيامه عن البعض الآخر .

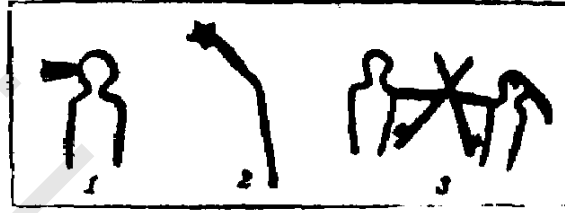
ومن مميزات التقويم المصرى أنه جعل للشهور أعدادا تعرف بها ، ولهذا كانت شهورا ذات طابع عملى إذا أردنا تحديد أى واحد منها ، ولكن لم يكن فى ذلك التقويم ما يساعدنا على تحديد أى سنة معينة . فإذا كان الأمر متعلقا بحادث من الحوادث فى السنة التى نحن بصددھا فليس هناك صعوبة لأنه يكفى وضع تاريخ خطاب أو تعاقد على عمل بذكر الشهر واليوم ، ولمكن إذا كان يعنينا ذكر شئ فى سنة أخرى أو نريد الإشارة إلى حادث جرى منذ بضع سنوات فإن الأمر يصبح معقدا . فنحن نلتجئ الآن مثلا إلى حادث هام وهو مولد المسيح ليسهل علينا حساب السنوات ، ولكن مثل هذا الحل لم يكن معروفا عند المصريين القدماء إذ كانوا يسمون كل سنة بحادث هام جرى فيها . وهذا ما زال متبعا حتى الآن بين هنود أمريكا الشمالية بل ما زال يجرى أيضا بين الأمريكيين الحاليين فى بعض الأحيان . فإن أهل شيكاغو ما زالوا يقولون فيما بينهم أن أمرا ما حدث فى عام الحريق الكبير ، أو ما زال بعضنا يشير إلى أمر من الأمور بأنه حدث فى عام توقيع الهدنة ، وهكذا كانت أقدم الآثار المصرية المكتوبة مؤرخه بأنها حدثت فى سنوات كانت لها صفات مميزة .

وجاء الوقت الذى أخذ فيه المصريون يحتفظون ببيان بأسماء السنين ، ولما كانت كل سنة منها تشير إلى حادث هام فإن مثل هذه البيانات أصبحت سجلا لتلك الحوادث ومن ثم صارت مصدرا مليئا بالمعلومات للمؤرخين المحدثين .

وأقدم بيان وصل إلى أيدينا من هذا النوع هو حجر بالرمو (لأنه محفوظ فى

متحف مدينة بالرمو في جزيرة صقلية) وهو أقدم بيان بالسنين في تاريخ العالم ، إذ أنه يبدأ في عام ٣٤٠٠ ق . م على وجه التقريب . وكان يحوى عندما كان كاملا أسماء نحو ٧٠٠ سنة تنتهى حوالى ٢٧٠٠ ق . م وأدرك المصريون بعد ذلك أنه من اليسير عليهم أن يحصوا السنين حسب وقوعها في عصر كل ملك على حدة . وكانوا يقولون مثلا أن حادثا ما وقع في السنة الأولى أو في السنة العاشرة من حكم ملك من الملوك ، وانتهى بهم الأمر إلى عمل جداول بأسماء الملوك السابقين في مدى مئات من السنين .

وفي أول الأمر كانت هذه السجلات على هيئة صور مثلها مثل سجل زعيم قبيلة الداكوتا Dacota الذى كان يثبت فيه السنين كما في شكل ٢٠ ، ولكن مع تقدم الزمن أصبحت أعمال الحكومة والأفراد في حاجة ضرورية إلى تدوين معاملاتها ، ولتضرب مثلا بمزارع يريد أن يعرف ما دفعه من ضرائب ، فإن هذا المزارع يستطيع أن يحفر على جدار كوخه المبنى من الطوب اللبن رسما بسيطا للوعاء الذى يستعمله في كيل الحبوب ويضع إلى جواره عددا من الخطوط توازى ما دفعه منها ، وهذه الطريقة نفسها أى الرموز التصويرية كانت أولى الخطوات في اختراع الكتابة ، وهى طريقة ما زالت سائدة حتى اليوم بين بعض قبائل الهنود في أمريكا الشمالية . ففي ألاسكا ، يرسل سكانها رسائل في هيئة صوره محفورة على قطعة من الخشب دون كتابة أى كلمات . فمثلا في الشكل ٢١ نرى صورة يقرؤها واحد من أهالى ألاسكا ، لا يوجد طعام في الخيمة ، بينما يقرؤها آخر ، لم يصبح للحم وجود في الكوخ ، لأن مثل هذه العلامات التصويرية لا تدل إلا على المعانى فقط . لتضرب مثلا آخر بأحد زعماء الهنود الذى دفعته رغبته لتسجيل أعماله إلى تدوينها بالصور كما نرى في شكل ٢٢ . ففي هذه الصورة أيضا لا نرى أثرا للكلمات ولكنه صور الحوادث التى امتاز فيها بشجاعته بطريقة يمكن التعبير عنها بكلمات ، ولكن هذه الكلمات



شكل : ٢٠ - جزء من جدول بأسماء واحد وسبعين عاما سجله أحد زعماء داكوتا

سجل أحد زعماء داكوتا واسمه «الكلب المتوحد» جدولا بأسماء واحد وسبعين عاما على ثوبه المصنوع من جلد الثور . وتبدأ هذه السنوات في عام ١٨٠٠ عندما كان طفلا في الرابعة ، وكان السعال الديكي منتشرا جدا في تلك السنة فسمّاها « عام السعال الديكي » وجعل رمزها رأس انسان يسعل بشدة (١) وفي سنة أخرى تساقط كثير من الشهب فسمّاها «عام الشهب» وجعل رمزها رسما بسيطا لشهاب يهوى (٢) . وفي سنة ثالثة شهد ذلك الزعيم مجلس صلح بين قبيلة الداكوتا وقبيلة القربان فجعل رمزها هنديين مختلف تصفيف شعرهما رمزا للقبيلتين ورسم هذين الهنديين وهما يتبادلان قصبات التدخين (٣) . وهكذا عبر هذا الزعيم بطريقته الخاصة عن كل حادث هام في السنة . فمثلا بدلا من أن يقول أن شيئا حدث في عام ١٨١٣ فإنه يقول ان هذا الامر حدث عام السعال الديكي وكان اذا أراد معرفة الوقت الذي مر على سنة من السنوات فإنه كان يفحص جدولته فيعرف التاريخ .



شكل : ٢١ - رسالة فى شكل صورة نقشها على الخشب أحد هنود ألاسكا

نرى فى هذه الصورة شخصا يرمى ذراعيه الى جانبيه ويدها مفتوحتان . وذلك يدل فى عادات هؤلاء الهنود على الحيرة أو الجهل أو الفراغ أو لاشئ أو تدل فقط على كلمة « لا » . والصورة الأخرى لشخص آخر يضع يده فى فمه ومعناها الأكل أو الطعام . وهذا الشخص يشير بيده الأخرى الى الخيمة ومعنى ذلك « فى الخيمة » والرسم كله يعبر عن رسالة مؤداعها « لا يوجد طعام فى الخيمة »



شكل : ٢٢ - سجل مصور يثبت انتصار أحد زعماء قبيلة الداكوتا المسمى الرنم الجارى

أعد هذا الزعيم الداكوتى تاريخ حياته فى سلسلة من أحد عشر رسما منها هذا الرسم الذى يمثل عندما قتل خمسة من أعدائه فى يوم واحد . ونرى هذا البطل الرنم الجارى « فوق جواده وبندقيته فى يده وعلى درعه رسم صقر وهو شعار عائلته . وتحت الجواد نرى رأسا يجرى وهو يقصد بذلك أن يدل على اسمه الشخصى . ونرى فى الصورة أيضا أثر سير جواده حول غابة الأشجار الصغيرة التى كان يختبئ فيها هؤلاء الأعداء الخمسة وقد عبر عنهم بشخص واحد يقبض على بندقيته ورسم البنادق الأربعة الأخرى وكان أصحابها يطلقونها دلالة على عدد المحاربين الذين كانوا فى تلك الغابة

غير محددة بالضبط وإنما يمكن التعبير عن معنى الصورة بطرق متعددة ، وكانت هذه الطريقة بعينها هي التي اتبعها ملوك مصر الأوائل .

ولكن هذه الخطوة التصويرية التي وقعت عندها هنود أمريكا وهي التعبير عن حادث من الحوادث بالرموز التصويرية ليست إلا خطوة تمهيدية للكتابة ، ولا يمكن للإنسان أن يصل إلى الكتابة الصوتية إلا بعد خطوتين تاليتين أولاهما أن أى شيء أو غرض يجب أن يكون له شكل ثابت لا يتغير ويمكن لكل شخص أن يعرف أنه هو العلامة لكلمة معينة تدل على هذا الشيء . فمثلا يصبح رسم رغيف من العيش شيئا متفقا عليه من الجميع ، وهكذا يسمى «رغيف» وليس «خبز» أو «طعام» ، وثانيهما أن تصبح هذه العلامة «مقطعا» له نطقه الثابت أينما كان في الكلمة ، وأنه إذا ورد رسم هذه العلامة بين حروف مقاطع كلمة أخرى فإن ذلك يدل على صلة بين مداولها الأصلية وقيمتها الصوتية ، وبدون هذه الخطوة لم يكن في استطاعة المصري على الإطلاق أن يكتب كلمات مثل «العقيدة» أو «الحب» أو «الكراهية» أو «الجمال» لو اقتصر على رسم الصور فقط . ولو أنه خطا تلك الخطوة الهامة وهي استعماله لعدد كبير من الصور كعلامات صوتية ، وصارت كل منها مقطعا لما كان في مقدوره أن يكتب كل كلمة عرفها ، لأن بعضها كان لا يمكن رسمه . وهكذا مكنته هذه العلامات الصوتية من أن يصبح أول من عرف الكتابة الحقة التي نشأت بين سكان وادي النيل قبل ظهورها في أى شعب آخر من شعوب العالم القديم .

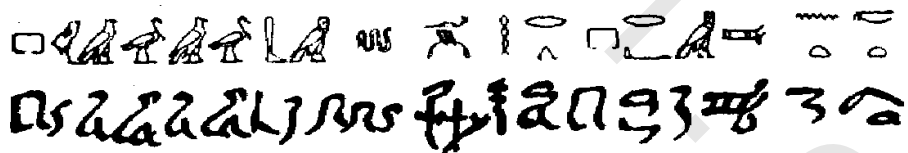
وجاء الوقت الذي أصبح في الكتابة المصرية القديمة أكثر من ستمائة علامة تعلها الكتاب المصريون ، وأصبحت الكتابة مجموعة كبيرة العدد من العلامات ، وكان بعض هذه العلامات يمثل كلمة قائمة بنفسها ، كما كان بعضها في حاجة إلى علامة أو علامات أخرى معه ليصبح كلمة ، ومن ثم أصبح في استطاعته وضع كلمة بعد أخرى وكون جملا أدت إلى ما يقصد التعبير عنه .

وفي تاريخ مبكر تقدم المصريون في هذا المضمار فأصبح لديهم عدد كبير من العلامات تعبر كل منها عن « حرف » ، أى صار لديهم حروف أبجدية ، ولم يأت القرن الثالث والثلاثين قبل الميلاد أى فى أواخر عهد « الاتحاد الأول » ، حتى احتوت الأبجدية المصرية على ٢٤ حرفاً ، وهى أقدم أبجدية عرفها الإنسان . ولو أراد المصريون فى ذلك الوقت أن يكتبوا لغتهم بحروف أبجدية لفعلوا ، ولكن الكتاب كانوا قد اعتادوا على استعمال العلامات ، وكانت هذه الطريقة متأصلة فى نفوسهم ، فلم يستطيعوا أن يفتدوا ما اعتادوا عليه ، مثلهم فى ذلك كمن يكتبون اللغة الإنجليزية كما تعلموها ولا يريدون أن يكتبوها كما ينطقونها ، وإذا كان هناك شخص لا يقر المصريين القدماء على طريقةتهم فى كتابة لغتهم واحتفاظهم بمجموعات العلامات رغم صعوبتها فإنى أؤكد له أنه سيكون بين الأجيال القادمة أناس سيسخرون من تمسك كتاب الإنجليزية بكتابة كثير من الكلمات كما جاءت إليهم رغم أنهم ينطقونها بشكل مختلف^(١)

وخطا المصريون بعد اختراعهم للكتابة خطوة أخرى وهى إيجاد الوسيلة التى تساعد على الاتفاف بها فتوصلوا إلى طريقة عمل البراد أو أى ألوان أخرى بوضع قليل من الصمغ فى الماء ويمزجون به الكفن أو الكربون النقى الذى يعلق بخارج الأوانى عند وضعها على النار . ووجدوا أيضاً أنهم لو أخذوا جزءاً من قصبة رفيعة وجعلوا إحدى نهايتها مديبة وغمسوها فى هذا السائل لسهل عليهم الكتابة بها . وتعلموا أيضاً أنهم لو شقوا نوعاً خاصاً من النباتات التى تنبت على حافة النهر فى

١ - يشير المؤلف الى مئات بل الى آلاف الكلمات التى تنطق بشكل مختلف عن كتابتها فمثلا كلمة (thoroughly) اعتادوا على كتابتها بهذه الحروف ولكنهم ينطقونها (thrurall) او كلمة (Knight) فانه اقرب الى المنطق لو كتبوها nite وهكذا . وقد بدا كثير من الكتاب المحدثين - وخاصة فى أمريكا - فى محاولة كتابة بعض الكلمات كما ينطقونها . ولكن محاولاتهم محدودة . وليس هناك ما يدل على حدوث تغيير جوهري فى وقت قريب . (المعرب)

المستنقعات — وهو نبات البردى — إلى فلفلات صغيرة لأمكن الكتابة عليها في يسر . وأدرك أن استعمال هذا البردى أسهل في الحمل من قطع الفخار والعظم والخشب والحجر التي كان يستعملها من قبل . وإذا أرادوا الحصول على صفحة كبيرة فإنهم كانوا يضعون تلك الفلفلات بعضها طولية والبعض الآخر عرضية فوقها ثم يضعون صفحة بعد أخرى ويلحمون أطرافها بوضع جزء منها فوق الآخر ثم يضغطونها كلها فيصبح السطح أملس مستوياً معداً للكتابة . وكان هذا البردى لا يتمزق بسهولة . أما لونه فكان شبيهاً بالورق الأبيض أو الورق الأصفر الفاتح اللون . من هذا نرى أن المصريين قد اكتشفوا أن سطحاً رفيعاً من مادة نباتية هو خير ما يمكن استعماله للكتابة . ومنذ هذا الاكتشاف لم يستطع أحد أن يكتشف مادة خيراً منها ، وبالاختصار فإن المصري القديم ، اكتشف القلم والحبر والورق ، وورثنا هذه الاكتشافات الثلاثة عنهم . وما زال الورق يسمى باسمه القديم



شكل : ٢٢ - مثل من الهيروغليفية (في السطر العلوى) وما يماثله بالكتابة الهيروغليفية (في السطر الذى تحته) وكانت هذه الأخيرة تكتب بسرعة بالحبر والقلم على أوراق البردى وتستعمل في جميع الأعمال اليومية

تماثل الكتابة الهيروغليفية ما نكتبه بأيدينا في حياتنا اليومية . أما الكتابة الهيروغليفية فهي تماثل حروف الطباعة . ونرى في المثل السابق أن الكتابة الهيروغليفية ليست إلا العلامات نفسها في السطر العلوى . وكان المصريون يكتبون في أغلب الأحيان من اليمين إلى اليسار كما في هذا المثل . ولكنهم كانوا يكتبون في بعض الأحيان من اليسار إلى اليمين ومن أعلى إلى أسفل . وفي العصر المتأخر في القرن الثامن قبل الميلاد بدأوا يستعملون كتابة أخرى أسرع وأكثر اختصاراً وهي الكتابة المعروفة باسم الديموطيقية

د. بايروس ، (في اللاتينية) مع تغيير طفيف ^(١) .
وكان لاختراع الكتابة واختراع استعمال الورق أثر عظيم في رفع مستوى
الجنس الانساني أكثر من أى شئ آخر ، لأنه أهم من جميع الحروب التي خاض
الناس غمارها وأهم من جميع النظم أو الدساتير التي وضعت منذ خلق الله هذا الكون
ولم تكن الكتابة منتشرة الإستعمال بين عامة الناس ، بل كادت تكون وقفا على
المعابد وعلى بلاط الملوك والموظفين ، وظل الناس يعيشون في قراهم كما كانوا يفعلون
من قبل في العصور المبكرة . ودفن هؤلاء المصريون الأوائل موتاهم في جبانات
على حافة الصحراء قريبة من قراهم . وظلت أماكنها مجهولة من علماء الآثار حتى
عام ١٧٩٤ عندما عثر عليها بعض الباحثين ، واستمر العلماء بعد ذلك يعثرون عليها
من آن لآخر في مناطق مختلفة على حافة الصحراء ممتدة على الجانبين الشرق والغرب
من نهر النيل ، وأمدتنا آلاف المقابر التي حفرت بكثير من الأدوات والأشياء
المختلفة التي مكنتنا من معرفة نوع الحياة التي عاشها هؤلاء الناس . فكانت أوانيهم
الفخارية التي وضعوها في مقابرهم ملونه في بعض الأحيان بمناظر تمثل مراكب
نيلية ذات مجاديف عدة . وهذه السفن هي أقدم ما عرفناه ، وهي تثبت لنا وجود
الصلة التجارية بين المدن المختلفة لأن كل مركب من تلك المراكب وضعت قائما
عليه شعار المدينة التي أتت منها مثل الراية . وقد أمدتنا جبانات عصر ، الاتحاد
الأول ، برسم ثلاثمائة من تلك المراكب وعليها راياتها ، وكانت تلك المراكب
تجرى فوق صفحة النيل من شماله عند البحر الأبيض حتى جنوبه عند الشلالات ،
وكان أهل الدلتا هم أصحاب السبق في التجارة لأننا عثرنا في غرب الدلتا على مائتين

١ - ان التغيير من بايروس (Papyrus) الى بيبير Paper طُفِئ جدا لان (us) ليست الا
نوعية لبعض الكلمات في اللغة اليونانية يجب حذفها في الإنجليزية . وهذا يعني بوضوح تمام ان الاسم
الكلمة الانجليزية مأخوذ من الاسم القديم .

واثنين وعشرين رسماً لتلك القوارب ذات الرايات ، وهذا يدل في الوقت ذاته على أن أقدم ميناء على شاطئ البحر الأبيض كانت من المرجح في الركن الغربي من الدلتا أى ليس بعيداً عن المكان الذى اختاره الاسكندر الأكبر لبناء مدينة الاسكندرية أهم موانئ العالم القديم . ولم تقتصر تلك التجارة على الجزء الشمالى من وادى النيل بل تغلغت أيضاً في الجنوب ، ونرى في نقش على الصخور جنوبى الشلال الأول مركبا يجرها بالخيال ثلاثة وثلاثون رجلاً لكي يسحبوها بين صخور الشلال . وكان طول هذه المركب نحو عشرة أقدام أى أنها لم تكن زورقاً صغيراً . ووجودها في هذا المكان قريبة على اتساع نفوذ ملوك مصر في ذلك العصر المبكر وامتداده نحو الجنوب .

وأمدتنا جبانات ذلك العصر بعدد كبير من الأدوات والآلات النحاسية أكثر مما كانت تمدنا به جبانات من سبقوهم ، وكان في استطاعة بعض أولئك الناس أن يقتنى خنجراً من النحاس بينما كان غيرهم يستعمل سكاكين الحجر . وكانت الفؤوس النحاسية والأزاميل من السلع التجارية التى اتجر فيها أصحابها من الصانع القليل العدد وجاء اليوم الذى انتهى فيه عصر « الاتحاد الأول » وانفصلت المملكتان وظلتا منفصلتين مستقلةتين زمناً طويلاً حتى ظهر في الصعيد حاكم قوى جعل نفسه أولاً حاكماً على مملكة الوجه القبلى ثم غزا بعد ذلك مملكة الوجه البحرى وأخضعها لسلطانه . وكان ذلك عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد (١) . ذلك هو الملك « منا » الذى حقق اتحاداً جديداً للمملكتى الشمال والجنوب والذى ورث حضارة عصر « الاتحاد الأول » وكما امتاز عصر « الاتحاد الأول » بأنه قام بسبب التطور الذى حدث نتيجة

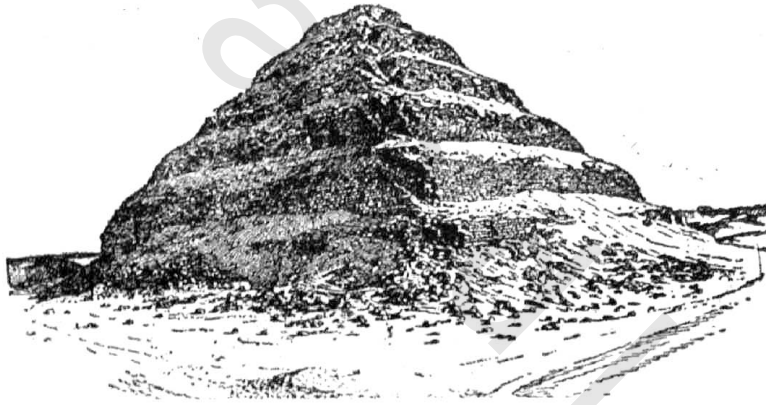
١ - ذكر المؤلف في كتابه تاريخ ظهور « منا » عام ٣٤٠٠ ق م . ولكن الأبحاث الحديثة اتفقت على أن ٣٢٠٠ ق م أقرب إلى الصواب . بل ويرى البعض أنه ٣١٠٠ أو ٣٠٠٠ . ويقال آخرون فيجعلونه قبل من ذلك . ولكن التاريخ الذى اتفق عليه أكثر العلماء هو ٣٢٠٠ ق م : (المغرب)

لإستعمال المحراث فى الزراعة وما ترتب على ذلك من توفير الحبوب ، فإن الاتحاد الثانى امتاز بأنه قام بسبب التوسع فى استغلال المناجم والحصول على كميات وفيرة من النحاس ، ولهذا يبدأ "عصر المعادن" بابتداء "الاتحاد الثانى" . وكان الملوك الأوائل من ذلك العصر يفخرون بالبعثات التى أرسلوها إلى شبه جزيرة سيناء . وما زالت الأنفاق التى قطعوها فى باطن الصخر موجودة إلى اليوم ، وهى أقدم مناجم للنحاس فى العالم ، وعلى مقربة منها نقش خلفاء "منا" من الملوك نقوشا ورسوما تسجل ذهابهم إلى هناك ، وهذه المناظر هى أقدم ما وصل إلى أيدينا من آثار تاريخية موضحة بالكتابة .

بناء الأهرام

عرف المصريون الأدوات النحاسية فاستعملوها ، وكان لذلك الأثر الأكبر في تحت وبناء مقابرهم وإنشاء المعابد المبنية بالحجر . وخير دليل على ذلك تلك الأهرام العظيمة القائمة في الجبانة الملكية في الجزيرة التي تثبت لنا مدى ما وصل إليه القدماء وما استطاعوا تحقيقه بالآزاميل النحاسية والآلة النحاسية البسيطة التي كانوا يستعملونها في تفريغ قطع الأحجار لتصبح أواني جميلة الشكل . ونحن إذ نقف مبهورين أمام تلك المباني الضخمة لا نكاد نصدق أن أجداد من بنوا هذه الأهرام لم يكن قد مضى عليهم غير بضعة أجيال قليلة . كانوا إذ ذاك في مستهل حضارتهم وكانوا يدفنون في حفر صغيرة على هيئة القرفصاء . ونرى الآن أبناءهم وقد خطوا خطوات جبارة مكنتهم من الوصول إلى هذه الحالة . ولقد تمكن المصري القديم في وقت قصير من السيطرة التامة على البناء بالحجر ، ولكتنا رأينا قبل الآن أن هذه الخطوة سبقتها خطوات بطيئة وطويلة المدى حتى تطور المصري وتغيرت حالته ، فأصبح يستعمل الأدوات النحاسية بدلا من مشابقتها من الحجر ، إذ كان اكتشاف النحاس في سيناء قد تم قبل ما يقرب من ألفين من السنين سبقت بناء الهرم الأكبر . أى أن المصري القديم قضى نحو ألفي سنة وهو يعرف النحاس ولكن لم يكن لذلك أثر على فن البناء . وكانت مقابر الملوك الأوائل تبنى من الطوب . وكانت لا تزيد عن حجرة تحت الأرض يغطيها سقف من الخشب في مستوى سطح الأرض ويوضع فوقها كوم كبير من الرمل والحصي ، وأقدم ما عرفناه من البناء بالحجر هو حجرة دفن أحد الملوك ، كانت جدرانها مبنية بالطوب وكسيت - جدرانها - من الداخل بقطع من الحجر الجيري ، ولكن لم يمض على ذلك العهد مائة وخمسون سنة أو أقل حتى وجدنا هؤلاء الملوك يبنون مدافنهم الملكية على شكل أهرام من الحجر .

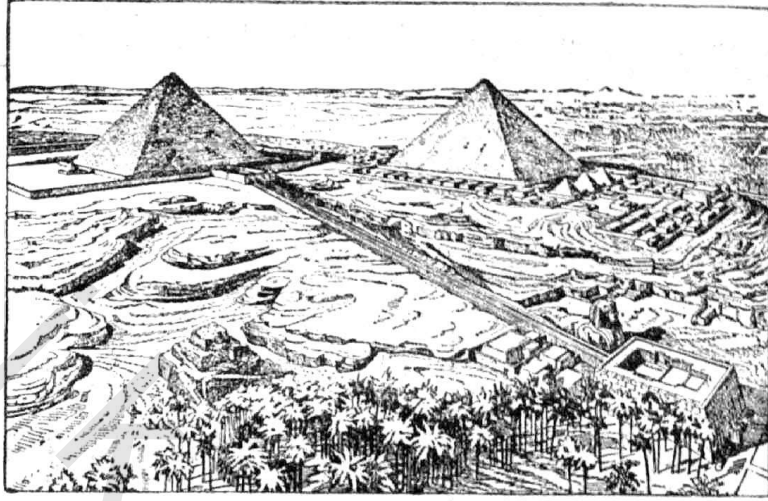
كانت أقدم المدافن الملكية تبنى تحت مستوى سطح الأرض، وجاءت الخطوة التالية فبنوها فوق الأرض ولكنها كانت من الطوب اللبن . وفى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد أقام المهندس المعمارى « إحتب » للملك زوسر أول بناء من الحجر، فبنى له قبرا كان وما زال أقدم بناء من الحجر فى تاريخ العالم ، وحول هذا القبر الضخم بنى إحتب مجموعة رائعة من المباني الجميلة المبنية بالحجر الجيري منها بناءان (١) حليت واجهتهما بأعمدة رشيقة مضلعة ، يخيل لمن يراها إنها لا تختلف عن الأعمدة الرشيقة اليونانية التى بناها اليونانيون بعد عصر إحتب بألفين وخمسمائة سنة .



شكل : ٢٤ - أقدم بناء حجرى فى العالم مازال قائما حتى الآن
الهرم المدرج هو قبر الملك زوسر . وقد بنى على هيئة مصاطب يعلو بعضها البعض
وارتفاعه نحو ٢٠٠ قدم . بناه المهندس المعمارى إحتب حوالى عام ٢٨١٥ ق م (٢)

١ - ذكر المؤلف أن هذين البنائين مقبرتان لبعض أفراد عائلته . وكان هذا هو رأى السائد منذ بضع سنوات ، ولكن قد تغير ذلك الرأى الآن بعد فحص البنائين . وعرف انهما بناءان أقيما للاحتفال بأعياد الملك ، أحدهما يسمى الآن « بيت الوجه البحرى » والثانى « بيت الوجه القبلى » وأحيانا يسميان فى كتب الآثار « بيت الشمال » و « بيت الجنوب » (المغرب)

٢ - التاريخ المذكور فى المؤلف هو ٢٩٤٠ ق م . كما ذكر المؤلف أيضا فى التعليق على هذا الشكل انه من المحتمل أن الاماكن بين المصاطب ملئت وكان يغطيها كلها جدار مائل وبذلك كان الهرم المدرج هو أقدم المحاولات للحصول على الشكل الهرمى الصحيح . ولكنه من المؤكد الآن بعد الابحاث الحديثة استحالة هذا الاحتمال . ولم يكن الهرم المدرج عند بنائه الا على هيئة مصاطب يعلو بعضها بعضا . أما الهرم الاول الحقيقى فلم يبنه المصريون الا بعد قرن من الزمان . وكان أول الاهرام الحقيقية هو هرم الملك سنفرؤ فى دهشور (المغرب)



شكل : ٢٥ - رسم يمثل الهرم الاكبر فى الجيزة وبعض ماحوله من آثار كما كانت بعد تشييدها مباشرة

شيد بعض عظماء ملوك عصر الاهرام تلك المقابر ، ونرى الى يمين الصورة هرم الملك خوفو ، وهو المعروف باسم الهرم الاكبر والى اليسار هرم الملك خفرع الذى يصغر قليلا فى الحجم عن الهرم الاول . وفى الجهة الشرقية من هذا الهرم يقوم معبد تقدم فيه المآكل والمشروبات والملابس ليستخدمها الملك المتوفى فى حياته الاخرى . وبني القدماء تلك المعابد فوق الهضبة على حافة الصحراء الى جانب الاهرام . أما المدينة التى كان يعيش فيها الملك فانها كانت فى الوادى فى وسط الاراضى المنزرعة . وكان هناك معبد على حافة الزراعة هو معبد الوادى يدخله الزائرون ويصعدون الى المعبد العلوى شرقى الهرم سائرين فى ممر طويل مسقوف مبنى بالحجر . ونرى فى الصورة الممر الموصل بين المعبد الجنائزى للملك خفرع ومعبد الوادى لهذا الملك الذى كان على مقربة من المدينة ، ونرى فى الصورة أيضا تمثال « أبو الهول » فى الناحية الشمالية من هذا المعبد . وحول اهرام الملوك نرى عددا من اهرام الملكات ومقابر كبار الرجال فى كل عهد . وإلى اليسار فى الصورة نرى مقبرة ملكية كان العمل جاريا فيها وحولها الجسور الصاعدة المبنية بالطوب والتى كانت تزال بعد اتمام البناء (١) « عن هولشر »

١ - ورد فى الاصل - اعتمادا على رأى هولشر فى أوائل القرن الحالى - أن البناء الذى على اليسار هرم لم يتم بناؤه . ولكن اتضح بعد كشف هذا البناء فى عام ١٩٣٢ انه مقبرة ملكية للملكة « خنتكاوس » وانها كانت على شكل تابوت كبير فوق صخرة ، ولم يكن الجزء العلوى منها هرمي الشكل

كانت فكرة إحتوب في تشييد الهرم المدرج خطوة هامة نحو تشييد المقابر الملكية على شكل هرمى . ولم يمض إلا أقل من قرن واحد حتى رأينا المعمارين المصريين يقيمون الهرم الأكبر في الجيزة . كان هذا القرن فترة تقدم كبير في فن البناء . وهوراجع إلى تحسين الانسان للقوى الميكانيكية التى كانت ميسورة له . ونحن لا نجد في تاريخ العالم فترة تقدم سريع مطرد شبيهة بهذه الفترة لذلك القرن إلا في القرن التاسع عشر الميلادى .

ويزداد تقديرنا لهذا التقدم عندما ندرك أن مساحة قاعدة الهرم الأكبر تبلغ ثلاثة عشر فدانا ، وأن البناء كله مبنى بكتل من الحجر الجيرى يبلغ عددها ٢٣٠٠٠٠٠ حجرا على وجه التقريب ، متوسط وزن كل حجر منها طنان ونصف طن ، وطول ضلع الهرم عند القاعدة ٧٥٦ قدما (١) (٢٣٠٠٥٧ متراً) وارتفاعه عندما كان كاملاً ٥٥٠ قدم تقريبا (أكثر من ١٥٠٠ متراً) وحسب رواية هيرودوت - وهى جديرة بالتصديق - فإن مائة ألف عامل ظلوا يعملون فى بناء هذا الهرم عشرين عاما . ومثل هذا العمل الكبير يحتاج إلى حاكم قدير وعدد كبير من الموظفين الأكفاء الذين كانوا حوله ، فليس من السهل إطعام مائة ألف شخص وتنظيم عمل كل منهم عندما كانوا جميعاً يعملون حول هذا البناء ، ولا شك أن الحاكم الذى يأخذ على عاتقه مثل هذا المشروع الضخم كان أقوى رجل رآه العالم . كان القصر الذى يعيش فيه يسمى « البيت الكبير » . وكان الناس عندما يتحدثون عن ملكهم يشيرون إليه باسم « البيت الكبير » ، وهو الاسم نفسه الذى وصلنا عن طريق اللغة العبرية « فرعون » ، الذى أصبح لقباً عاماً لكل الملوك .

وقامت حول أهرام الملوك مقابر كثيرة مبنية بالحجر بعضها لأفراد عائلته

١ - إذا قارنا هذا الهرم ببنى الكلوسيوم (Colosseum) فى روما فالتا نرى أن طول الكلوسيوم هو ٦٠٠ قدم تقريبا مع الفارق الكبير وهو أن الكلوسيوم لم يكن إلا سورا كبيرا حول فضاء . أما الهرم الأكبر فكان مبنيا كله بالحجر .

والبعض الآخر لذوى النفوذ من رجال بلاطه الذين كانوا يديرون دفة أعمال الحكومة تحت إشراف الملك ، فقد كانوا حوله في قصره في حياته وأرادوا أيضا أن يكونوا حول هرم سيدهم بعد مماته، وبذلك أصبحت جبانة الجيزة وما زالت حتى اليوم ، صورة من الإدارة الحكومية في مصر في عهد الاتحاد الثاني . وكان يعاون الملك نوعان من الموظفين أحدهما الموظفون المحليون المنتشرون في جميع أرجاء مصر ، والنوع الثانى الموظفون المركزيون الذين كانوا يعيشون في العاصمة حول الملك ، وكان موظفو الأقاليم مكلفين بجمع الضرائب ويدخل في اختصاصهم الفصل فى القضايا . وكان أمام كل قاض منهم قانون مكتوب يحكم بمقتضاه (١)

أما المبنى المركزى فى العاصمة على مقربة من الملك فكان عبارة عن مكاتب متعددة مبنية من الطوب اللبن قليلة الارتفاع يعمل فيها مئات من الكتبة، يجلس كل منهم وقلبه فى يده وأمامه قراطيس البردى يكتب فيها حسابات الملك وكل ما يتطلبه العمل من تدوين . وكان لدى هؤلاء الكتاب سجلات بأسماء دافعى الضرائب والمبالغ المستحقة عليهم ، وهذا هو ما فعله اليوم . ولكن يجب ألا يغيب عن ذهننا أن أوروبا لم تعرف مثل هذه الاجراءات إلا فى أيام الامبراطورية الرومانية فقط أما الضرائب المستحقة فكان الناس يدفعونها عينا سواء من الحيوانات أو الحبوب أو النيدز أو العسل أو القماش أو ما شابه ذلك ، وكانت هذه الضرائب توضع فى حظائر وشونات غلال ومخازن ، وهى فى مجموعها الخزانة الملكية على مقربة من بعضها فى مجموعات كبيرة من المباني والأحواش .

وأعطت تلك المباني الحكومية لعاصمة البلاد مظهراً خاصاً ، وزادت فى عمرانها واتساع رقعتها فأصبحت أكبر مدينة عرفها الإنسان حتى ذلك الوقت ، وكان أهم

١ - لم يعثر العلماء حتى الآن على نسخة من القانون المصرى القديم ، ولكن هناك اشارات كثيرة اليه فى كتابات المصريين والمناظر التى على الآثار

أحياء تلك العاصمة هو الجزء الذى قام فيه القصر الملكى تحوط به الحدائق يليها بيوت كبار الموظفين ومكاتب الحكومة ، وخاصة الخزانة ، تلك هى المدينة الملكية التى امتدت من الجيزة وما يليها إلى الجنوب وأصبحت تعرف فيما بعد باسم « منف » ، ولم يبق من تلك المدينة الملكية القديمة أى أثر لأنها كانت مبنية بالطوب اللبن والخشب .

أما مدينة الأموات وهى الأهرام وما تجمع حولها من مقابر ، فلم تلق المصير نفسه لأنها كانت تبنى بالحجر وهى مادة أكثر بقاء على الزمن من الطوب ، ولهذا أصبح من السهل علينا أن نتتبع تاريخ العائلة الملكية وأقاربها فى جبانة الجيزة خلال مائة سنة وعشرة وهى الفترة التى كان يدفن فيها أكثر ملوك الأسرة الرابعة وموظفوها . كما تمدنا الجبانات الأخرى بمعلومات تجمعا ننتفع بتاريخ هذه العائلة إلى مدى أبعد من ذلك .

إن المنظر الذى نراه من قمة الهرم الأكبر من أجمل ما تقع عليه العين وبخاصة إذا ألقينا ببصرنا نحو الجنوب ورأينا تلك السلسلة من الأهرام يتلو بعضها بعضا حتى يغيبها الأفق عن ناظرينا . إن كل واحد من هذه الأهرام كان مدفنا لملك عاش وحكم ثم مات . حكم هؤلاء الملوك نحو خمسمائة عام . وكان كل من يموت منهم يدفن فى أغلب الأحيان فى هرم ، وكان يختار كل منهم لهرمه مكانا على هذه الهضبة حتى امتدت فأصبحت أكثر من ستين ميلا تقص علينا هى وما حولها من جبانات قصة مصر خلال خمسة قرون من الزمان - هذه الفترة تبدأ من القرن التاسع والعشرين حتى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، وهى ما يطلق عليها الكثير من العلماء اسم عصر بناء الأهرام .

عقائد المصريين وآراؤهم الدينية

بذل المصريون كثيراً من مالهم ووقتهم ومهارتهم وجهودهم في بناء مقابرهم وتأثيثها، وذلك لعقائد خاصة بالحياة بعد الموت ، إذ اعتادوا على دفن موتاهم قبل أن يكون لهم ملوك أو مملكة بآلاف السنين . ومع هؤلاء الموتى وضعوا الادوات التي كانوا يستعملونها أثناء الحياة حتى في الوقت الذي كان يعيش فيه سكان وادي النيل كصيادين بدائيين . دفنوا موتاهم ومعهم أسلحتهم وأوان فيها الماء كل والمشارب ، فلما تقدم الزمن وصار لهم ملوك وحضارة زاد ما كانوا يدفنونهم مع موتاهم ، وبنوا المقابر الضخمة ووضعوا فيها الاثاث الجنائزى الكثير . وبالرغم من أن المصريين كانوا يعتقدون أن الموتى سيحيون حياة أخرى في مكان بعيد عن القبر وبعيد عن الجسد الموسد فيه فإنهم لم يستطيعوا يوماً من الأيام أن يفصلوا فصلاً تاماً بين الجسد الذي في القبر وبين تلك الحياة الأخرى ، ولم يتصوروا الخلود للموتى دون أن يكون للجسد نصيب فيه ، ولهذا كانوا يحرصون على سلامته وكانوا يتفنونون في المحافظة عليه حتى وصل بهم الأمر إلى إقامة تلك المقابر العظيمة المبنية بالحجر .

ولم يقف بهم الأمر عند بذل الجهد لإيواء وحماية الجسد بعد الموت بل بدأوا أيضاً في تحنيط تلك الأجساد وحفظها ككوميات . وكانوا يهدفون من وراء ذلك أن يظل ذلك الجسد المحنط محتفظاً بشكله في حجرة صغيرة عميقة داخل القبر تحت بناء عظيم من الحجر . وهذه العقيدة هي السبب الذي جعل كل حاكم من الحكام ينفق الموارد الطائلة على بناء قبر ليكون مقراً لجسده ليأمن سلامته بعد الموت ، وحذا أقارب الملك والموظفون حذو سيدهم في الاستعداد للحياة بعد الموت . وكثيراً ما كانوا يرتبون الأوقاف للصرف منها على صيانة مقابرهم .

ولكى نفهم تلك العقيدة الخاصة بالحياة بعد الموت يجدر بنا أن نعود بذاكرتنا إلى الوقت الذى كان يعيش فيه الصيادون فى العصر الحجري ونذكر كيف غيروا طريقة حياتهم وأصبحوا يزرعون الأرض ويحصلون منها على القوت . فلا شك أن الزرع الأخضر الذى نبت من الأرض السوداء قد لفت نظرهم إلى التفكير فى أصل الحياة ، وكان لهذا التغير فى حياتهم من صيادين إلى زارعين فى الأرض أثره فى عقيدتهم الدينية . ولم يكن هذا قاصراً على المصريين فحسب بل كان عاماً فى شعوب بلاد الشرق الأدنى الذين اعتمدوا على الزراعة فى حياتهم . وبدأوا منذ وقت مبكر يعتمدون فى حياتهم على ثمرات الأرض . وكان كفاحهم لأجل البقاء يدور حول تلك الزراعة وما تقدم به من حاصلات . وبث فيهم هذا الإحساس روح الاحترام والاعتراف بالجميل وأدخل على ديانتهم لوناً جديداً . وهذه الروح الجديدة هى الأساس الذى تقوم عليه عقائد هنود أمريكا الشمالية ، بل أنها فى الواقع مازالت ذات أثر كبير فى ديانتنا حتى اليوم ، وقد ورثناها كأحدى النتائج الهامة لما طرأ على أفكار الناس من تغيير عندما تركوا حياة الصيد إلى الحياة الزراعية .

رأى الزارع أن تلك الحبة التى بذرها نبتت وأخضرت وأتت ثمارها ثم زرع من تلك الثمار حبة أخرى فتكررت معجزة الحياة ، وفكر فى تلك الحياة المتجددة التى لا يمكن أن تموت موتاً نهائياً ، وكان من الطبيعى أن يدخل فى روعه الاعتقاد بأن هذا الشيء الحى الذى لا يموت يجب أن يكون إلهاً . وسمى المصريون هذا الإله باسم " أوزيريس " واعتقدوا أنه روح هذه الحياة الخضراء النابتة من الأرض . وكانوا يرون هذه النباتات الخضرة تذوى كل عام وتتراعى لناظرها كأنها ماتت وفارقت الحياة ولكنها كانت تعود مرة أخرى إلى حياتها ونضرتها وانتشرت مثل هذه العقيدة على طول الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط وامتدت إلى الخليج الفارسي ، وكان هذا الإله يسمى فى غرب آسيا أحياناً باسم " تيموز " وأحياناً

باسم « أدونيس » كما كانت له أسماء أخرى تختلف من بلد إلى آخر ، ولذلك نرى في قصة « أوزيريس » أحب الآلهة إلى قلوب المصريين القدماء أنه عاش ثم مات ثم بعث بعد الموت . وهذا هو ما حدث لجميع الآلهة المحلية في غرب آسيا وبخاصة في سوريا وفلسطين وآشور وبابل .

ولم ينس المصريون هذه الصلة القديمة التي تجمع بينهم وبين آسيا في العقيدة فنقرأ في أسطورة « أوزيريس » أنه مات ثم سبج جسده حتى استقر أخيراً في جبيل^(١) على الشاطئ الفينيقي حيث عادت إليه الحياة فأصبح شجرة خضراء وعاش مرة أخرى .

وكانوا يرمزون في غرب آسيا للحياة المتجددة بشجرة . وكانوا يقيمون في كل عام احتفالاً كبيراً ينصبون فيه شجرة ويزرعونها ثم يزينونها ويكسونها بالأوراق الخضراء ، وورث الغربيون هذه العادة ، وما زالوا يحتفلون بها عندما يقيمون « عامود شهر مايو » Maypole الذي ينصبونه ويزينونه ويطعمون المآدب ويرقصون حوله احتفاءً بعودة الربيع .

وكان الناس يقصدون من هذا العيد أن يعبروا عن شعورهم نحو اعتمادهم على تجديد الأرض للحياة ، ذلك التجديد الذي أمدهم بالقوت الذي يحصلون عليه من حقول الحبوب ، وبعبارة أخرى كان مظهراً دينياً لاعتراف الناس بفضل الزراعة عليهم .

ولم يكن لهذا الاعتقاد في غرب آسيا تأثير يقود الناس إلى الإيمان بحياة نعمون بها بعد الموت في العالم الآخر : أما في مصر فإنهم فضلوا أن يؤمنوا بأن أوزيريس لم يكن القوة التي تمدهم بالحياة وتعطيهم القوت في هذه الدنيا فحسب ، بل

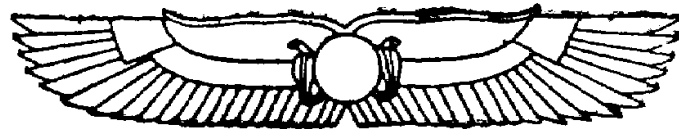
١ - هي مدينة ببلوس Byblos القديمة وتقع على الشاطئ شمال مدينة بيروت العالية

أنه كان يعنى بهم أيضاً فى الحياة الأخرى فيعيشون سعاداء عندما يأتى اليوم الذى يموتون فيه وتستقر أجسادهم فى القبور التى يدفنون فيها على حافة الصحراء .

آمن الناس إيماناً قوياً بأن عقيدتهم فى أوزيريس تيسر لهم حياة مباركة فى العالم الآخر، وكانوا يرون فى هذا الإله رمزاً للبوت ثم الحياة مرة أخرى، وكانوا يرمزون له بشجرة فى بعض الأحيان وفى الوقت ذاته كان يرى فيه بعض المصريين أنه هو الأرض السوداء التى تخرج منها الحياة المخضرة ويرحمون سنابل الحب وهى تنبت من جسده . ورأى البعض أن الأرض لا يمكن أن تؤتى ثمارها إلا إذا روتها مياه النيل فاعتقدوا أن أوزيريس هو النيل ، وهكذا اعتقد المصريون أن نهرهم العظيم وأرضهم الخصبة التى تروىها مياهه والحياة المخضرة التى تزدهر بسببه ليست إلا شيئاً واحداً هى إله واحد هو أوزيريس الذى كانوا يرون فيه رمزاً لحياة الأرض التى لا تفتنى .

واعتقد المصريون فى آلهة كثيرة ولكنهم آثروا عبادة اثنين كان لهم السبق على جميع الآلهة الأخرى ، أحدهما أوزيريس الذى لم يقهره الموت ، والآخر هو الشمس التى تبهر البصر بضياؤها فى سماء مصر الصافية ، هذا هو الإله « رع » الذى كان أعظم الآلهة المصرية كآله للأحياء والذى أقام المصريون لعبادته أنخم معابدهم . ولم يكن الهرم إلا رمزاً مقدساً له .

ورمز المصريون للكثير من آلهتهم ببعض الحيوانات . وقد سبب ذلك



شكل : ٢٦ - قرص الشمس المجنح ، رمز إله الشمس
نرى قرص الشمس فى الوسط وعلى كل جانب منه رأس أفعى من نوع « الكوبرا » . أما الجناحان فانهما جناحا صقر ، وكانوا يعتقدون أن إله الشمس فى هذه الهيئة ليس إلا صقراً يطير فى السماء

وقوع بعض الناس فى الخطأ فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن فى أصل ديانتهم وإنما دخل عليها فى أيام اضمحلالهم وفى الوقت الذى بدأت فيه ديانتهم فى الاحتضار فى العصر الرومانى . كما كان كل من قرص الشمس المجنح والهرم رمزاً لإله الشمس .

عصر الأهرام

الاقتصاد - المجتمع - الفن

إهتم المصريون في عصر الأهرام بتسجيل مناظر مختلفة على جدران المقابر التي حول الأهرام ، وبهذا كانوا أقدم شعب في العالم ترك لنا مناظر مصورة تكشف لنا عما كانت عليه حياتهم . ولذلك فإنه يخيل لزائرها كأنما انتقل به الزمن وأنه يجوس خلال بيوت أولئك القدماء ويمشي في بلاد وادي النيل في الوقت الذي كان فيه يبني سكانه تلك الأهرام العظيمة .

وحرص المصريون في ذلك العهد على أن يبنوا لكل مقبرة هيكلًا يقيمونه فوق سطح الأرض بينما يدفنون الميت تحتها ، وكان الاعتقاد السائد بينهم هو أن روح صاحب القبر تخرج من حجرة الدفن لتزور الهيكل ، ولهذا كان أقارب الميت يتركون المأكول والمشروبات في الهيكل ويضعونها على مائدة من الخبز لتجدها الروح ، وكانوا يحرسون أيضاً على أن ترى الروح حولها ما اعتادت على رؤيته أثناء الحياة ، ولذلك اهتموا بنفس مناظر الحياة اليومية على جدران الهيكل من السقف إلى الأرض وتفننوا في إتقان رسمها وتلوينها ، وهي توضح لنا نوع الحياة التي عاشوها . وإذا فحصنا هذه الصور التي على جدران الهياكل فإننا نتعلم منها الشيء الكثير .

فهذا هو الوجه نفسه مرسوم بحجم كبير يقف ناظرًا إلى حقوله ويراقب ما يجري فيها من عمل . ونحن اذ نمتع ناظرين برؤية المنظر يجب ألا يغيب عن ذهننا أن هذه هي أقدم مناظر في تاريخ العالم تبين لنا العمل في زراعة وحرث الحقول . وإلى جانب هذه المناظر نرى قطعان الماشية مرسومة في صفوف طويلة ، فهنا أبقار يقيدونها ليحلبوا منها اللبن ، وهناك ثيران تجر المحاريث وتساعد الإنسان بالتخفيف عن عاتقه . وعلى هذه الجدران التي نقشت في عصر الأهرام لا نرى أثرًا للرسم الخيل

لأنها كانت غير معروفة في مصر اذ ذاك ولكننا نرى الكثير من رسوم الحجر وعلى ظهورها أحمال من الحبوب ، ولولاها لما تمكن الإنسان من جمع المحاصيل .

وعلى الحائط الثانى نرى الوجيه مرة أخرى مرسوماً بحجم كبير يلقى نظرة على المظلات والقاعات التى يعمل فيها الصناع الذين فى خدمته . فهناك يجلس نحاس من المؤكد أنه لم يسمع فى حياته بسلفه الذى التقط أول قطعة من هذا المعدن قبل ألفى سنة تقدم خلالها الصناع المصرى تقدماً كبيراً وأصبح الآن قادراً على صناعة أدوات دقيقة من النحاس من جميع الأنواع . ولكن الآلة التى كانت تحتاج إلى مهارة أكثر من كل ما عداها كانت المنشار الطويل المستوى الذى عرف النحاس كيف يطرقة ويشكله من قضيب من النحاس طوله خمسة أو ستة أقدام . ولم يقف الأمر بصانع النحاس عند هذا الحد بل بلغ من القدرة فى صناعته أن ينفذ طلبات تدهشنا اليوم مثل ماسورة من النحاس طولها ١٣٠٠ قدم (نحو ربع ميل) كشفت عنها الحفائر فى معبد أحد الأهرامات ، وكانت موضوعة تحت أرضيته لتصرف المياه ، وهذه الماسورة هى أقدم أعمال السباكة التى عرفها العالم حتى الآن .

وعلى الجدار نفسه تقع أعيننا على صانع الأوانى وهو يقدم للوجيه أوانى فخمة من الحجر الديوريت راجياً أن تحوز إعجابه ، وبالرغم من أن هذا الحجر فى درجة معدن الصلب فى صلابته ، فقد كان فى مقدرة الصانع القديم أن يرقق من جدرانها إلى أن يصبح نصف شفاف ويخترقه الضوء فنرى من خلاله عروق الحجر الرمادية اللون . وهناك أيضاً صناع الأحجار الثمينة يقطعون ويصقلون قطعاً صغيرة من الفيروز الأزرق الجميل لى يرصعوا بها فى دقة مذهشة سطح أناء فخم من الذهب أتم الصانع صنعه .

إلى جانب ذلك نرى مظلة الصائغ وقد اكتظت بالصناع ومساعدتهم يترقون ويصبون ويلحمون ويجمعون اجزاء من الحلى بعضها إلى بعض . فقد نبغ هؤلاء

الصباغ في عملهم ، وكانوا يصنعون حليا لا يمكن أن تخرج يدا الصائغ أو الجوهرى الحديث أفضل منها .

وعلى مقربة منه نرى صانع الفخار الذى لم يعد يصنع أوانيّه بأصابعه كما كان الحال في العصر الحجري ، بل ها هو يجلس أمام عجلة أفقية الوضع يديرها ويشكل أوانيّه عليها بمهارة تامة ، وبعد أن تجف هذه الأواني المصنوعة من الطين لا يضعها الصناع في وسط نار فيحرقوها كما كان يفعل الفخاريون في العصر النيوليتي في قرى



شكل : ٢٧ - رسم بارز على الحجر في مقبرة وجيه من عصر الاهرام

يقف هذا الوجيه الى اليمين وقد رسمه الفنان بحجم كبير ، وهو يتفقد صفوفاً ثلاثة من الماشية وصفاء من الطيور جاءوا بها اليه . وفي الصفين اللذين في الوسط نرى الكتاب وهم يسجلون بأقلامهم في قراطيس البردى ، ونرى واحدا منهم وقد وضع قلمين خلف أذنه . وكانت أمثال هذه المناظر تنقش على الحجر ثم يلونها الرسامون بألوان زاهية

البحيرات السويسرية ، بل نراهم يحملونها إلى حوش صفت فيه أفران مغلقة من الطين الناشف ارتفاعها مثل قامة الرجل ، وكانت الأواني ترص داخل هذه الأفران ويخرجها بعد أن يتم حرقها في تلك الأفران التي لا يؤثر الريح فيها أو يسبب عيوباً في صناعتها . وعلى هذا الجدار نرى الصناع وهم يصنعون الزجاج ، ولكن ليس بالصورة التي نعرفها ، وإنما بوضع طبقة زجاجية (Glaze) فوق مادة من المواد ، فقد عرف المصريون ذلك قبل بضعة قرون ، وكانوا يصنعون قوالب صغيرة يغطون سطحها بطبقة زجاجية ذات ألوان زاهية ليكملوا بها جدران المنازل والقصور ، وفي العصور التالية عرف الصانع المصري كيف يصنع الزجاج الحقيقي وصنع منه زجاجات وأواني ذات ألوان عديدة كثيراً ما بعثوا بها كسلع تجارية إلى الشعوب الأخرى .



شكل : ٢٨ - فلاح يحلب بقرة - من عصر الاهرام

وقفت البقرة ساكنة بعد أن ربط الراعى رجليها الخلفيتين بالحبال ونرى خلفها رجلاً آخر يمسك بعجلها الرضيع الذي يثب على رجليه الخلفيتين ويندفع بأذلا جهده ليصل الى اللبن .

وترينا المناظر التي على هذه الجدران نساء ينسجن الملابس الكتانية . ولسنا نتوقع أن تعطينا الصورة فكرة عن دقة صناعته ولكن وصلت إلينا لحسن الحظ بعض قطع من الثياب الكتانية المصنوعة للملوك كانت قد لفت بها مومياء أحد ملوك ذلك العصر ، وعرفنا منها إلى أى مدى تفوقت الصناعة المصرية ، فأخرجت كتانا على النول اليدوى بلغت فيه دقة النسيج ما جعل من الصعب أن نميزه عن الحرير ،

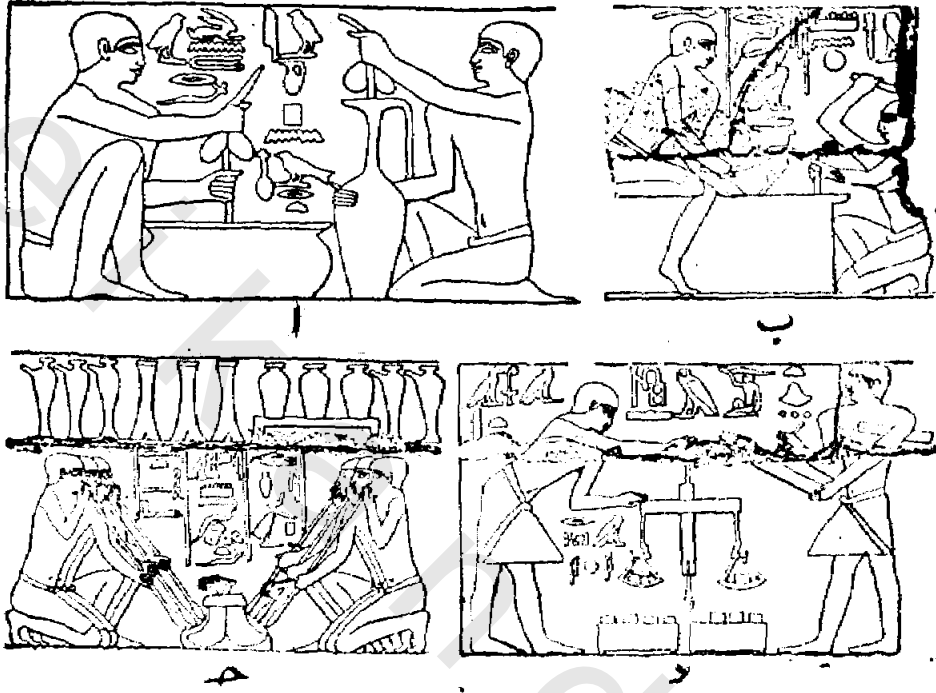
وإذا قارناها بخير ما يمكن أن ينتجه النول الميكانيكى الحديث فإن صناعتنا الحالية خشنة بالنسبة اليها . وأخرج النساجون المصريون فى تلك الأيام كثيراً من أنواع الثياب كانوا يصنعونها على أنوالهم اليدوية ، وكثيراً ما صنعوا أنسجة موشاة لتعلق على جدران قصر الملك أو لتستعمل سقفا يظلل حديقة السطح فى بيوت الوجهاء ، لأن هؤلاء النساجين كانوا أول من صنع تلك الأنسجة الموشاة بين شعوب العالم .

وهناك أيضاً مناظر لرجال حفاة الأقدام يجمعون حزمات كبيرة من أعواد البردى التى تنمو فى المستنقعات على مقربة من النيل ، ومع مرور الزمن حملت المراكب المصرية كثيراً من كميات الورق المصنوع فى وادى النيل مع ما كانت تحمله من بضائع وتنقله فى البحر الأبيض المتوسط إلى سوريا وأوروبا . فإذا ما انتقلنا إلى الحائط المجاور نرى النجارين وبناء السفن وهم يعملون . وقد أجاد الفنان رسمهم حتى ليكاد يخيّل إلينا أننا نسمع صوت ضربات الشاكوش والقادوم ، فهؤلاء النجارون يقومون بصنع الأثاث الفخم لبيت الوجه . وبلغ هؤلاء الصناع حدّاً كبيراً من التقدم وكانوا يحملون الكراسى والأرائك التى يصنعونها للبلوك بصفائح الذهب ويطعمونها بالأبنوس والعاج وينجدونها بوسائد من الجلد الأملس . وعلى مقربة من مصانع الأثاث نرى صفّاً من المراكب ، ونرى العمال منتشرين فوقها كالنمل يجمعون أجزاء الزوارق وأجزاء أقدم السفن البحرية التى عرفها التاريخ

وزادت الملاحة النهرية التى بدأت فى عصر الاتحاد الأول ، زيادة كبيرة لأن التقدم السريع فى الصناعة أخرج كثيراً من الأدوات وساعد على تشجيع التبادل التجارى بين المدن المختلفة ، وكثيراً ما نرى تلك المراكب مرسومة على جدران المقابر وكانت صفحة مياه النيل زاخرة بها ، وكانت حمولاتها إما ضرائب مرسلّة للخزانة الملكية أو أسلحة فى طريقها إلى أسواق المدن للتبادل عليها بسلع أخرى .

وبين مناظر المقبرة نفسها أحد الأسواق ، ونرى فيه صانع الأحذية يعرض على

الحباز زوجا من الصنادل مقابل رغيف أو أرغفة من الخبز ، وزوجة النجار وهي تعطي صائد السمك صندوقا صغيراً من الخشب ثمناً لسمكة ، وزوجة الفخارى وهي تعرض أناءين مما أخذته حديثاً من الفرن على العطار مقابل أناء في داخله بعض العطور



شكل : ٢٩ - صناع مصريون أثناء العمل

(أ) صانعوا الاواني يجوفون اواني حجرية بآلة تشبه المثقاب المجنح ، ولهذه الآلة يد ، ومثبت في أعلاها ثقلان ليحفظا التوازن ، وكانت اليد من الخشب أما السلاح القاطع فكان من الطران . (ب) نجارون يستعملون قادوما أو أزميلا ومدقة في عمل باب . (ج) صانعو معادن ينفخون في قصبات لعمل تيسار من الهواء يدفعون به الى مزيج من الفحم والنحاس الخام ليحصلوا على معدن النحاس نقيا . وهذا هو أبسط أنواع الكور . (د) صياغ يزنون قضباناً من الذهب (مناظر من مقبرة مروكا في سقارة)

كان هؤلاء الناس لا يعرفون العملة النقدية ، وكان تبادل السلع هو أساس التعامل بينهم ، وهذا هو ما كان يحدث بين كل طبقات العامة . ولكن الأمر يختلف في سراى الملك ومكاتبها . فقد كانوا يتعاملون بحلقات ثقيلة من الذهب ذات وزن محدد متفق عليه ، كانت تقوم مقام النقود . وكانت هناك أيضا حلقات من النحاس لتأدية الغرض نفسه . ولا شك أن تلك الحلقات كانت الأصل في عملة النقد فيما بعد .

ولم يكن أولئك الناس الذين رأيناهم في السوق إلا من عامة الشعب في عصر الأهرام . وكان بعضهم أحرارا لهم الحرية التامة في ممارسة تجارتهم أو صناعتهم ، والبعض الآخر كانوا أرقاء يعملون في حقول أصحاب الممتلكات الكبيرة . ولم يكن



شكل : ٣ - مناظر في سوق مصرية (عن ليسسيوس)

في هاتين الطبقتين الفقيرتين من يملك أرضا . وكانوا يأتمرون بأمر من يملكون الأراضي وهم الملك ورجاله وموظفوه الذين عرفنا أسماء الكثيرين منهم لأنهم تركوها مكتوبة في مقابرهم . وإذا تجولنا بين مقابر الجيزة وسقاره نستطيع أن نكتب بيا بأسمائهم وبكون هذا البيان أشبه ، بدليل ، لعظماء المصريين الذين كانوا يقطنون في أفخم أحياء العاصمة في الوقت الذي كانت تبنى فيه الأهرام أى منذ وقت يقرب من خمسة آلاف عام . فمن قراءة أسمائهم وألقابهم نعرف من كان منهم وزراء أو رؤساء للخزينة ومن هم الذين تولوا المناصب الرئيسية في القضاء ومن هم الذين كانوا مهندسين معماريين أو أمناء أو في القصر أو من كانوا رجال البلاط وهكذا . نعرفهم جيدا ونعرف مقابرهم . بل وصل بنا الأمر أننا نعرف شبه الكثيرين من أولئك الوجهاء ، وذلك من تماثيلهم التي كانوا يحرسون على جعلها صورة مطابقة لشكل صاحبها .

وكان أعضاء البيت المالك هم أهم طبقة بين أولئك الوجهاء . ولنتحدث قليلا

عن أم الملك خوفو . كان قبرها الأصلي في مكان بعيد عن الجيزة وتمكن اللصوص من دخول قبرها وسرقه جزء مما كان فيه . فلما علم ابنها بهذا الحادث جزع وأمر موظفيه أن يحضروا تابوتها وجميع الأثاث الجنائزى الذى كان مدفوناً معها إلى الجيزة لأنه أراد أن تدفن أمه في مكان أمين . وكان العمل جارياً في الهرم الأكبر ولهذا اختاروا لمستقرها الجديد مكاناً إلى الشرق ، وحفروا بئراً عميقاً نحو مائة قدم قطعوها في الصخر ، وفي نهايتها نحت العمال حجرة نقلوا إليها الأثاث الجنائزى الخاص بأم الملك ، وبعد أن أتموا ذلك ملأوا البئر كله من أسفله إلى أعلاه بأحجار مبنية وأحسنوا إخفاء معالم الجزء العلوى من هذا البئر ، ونجحت هذه الطريقة في حماية ذلك المستودع من العبث فلم تمسه يد إنسان قرابة خمسة آلاف عام .

فلما اكتشفتها بعثة هارفارد — بوسطون وجدوا أن أخشاب ذلك الأثاث الجميل قد بلى أو انكمش إلى حد غير معمله ، ولكن صفائح الذهب التى كانت تغطى تلك الأخشاب بقيت كما هى . وبذلك أمكن عمل خشب جديد وضعوا فوقه صفائح الذهب القديمة ، وبذلك أصبح فى استطاعتنا أن نرى الهودج الذى كانت تحمل فيه الملكة عند خروجها للنزهة ، وهو يشبه عربة لاعجل لها كانت تجلس فوقه الملكة مادة رجلها إذا شاءت ويحمله أتباعها فوق أكتافهم ، ومع ذلك الهودج نرى الكرسي الذى كانت تستريح فوقه عندما كانت تعود إلى القصر ، والسرير الذى كانت تنام فوقه ، وصندوق حليها الذى كانت وصيفاتها يضعن فيه حلقات فخمة من الفضة مرصعة بفراشات صنعت من الفيروز الأزرق واللآلئ والأحمر ، وكانت الملكة تزين رجلها بهذه الحلقات (الخلاخيل) فى الحفلات التى كانت تقام فى القصر . وقد احتوت المقبرة على الكثير من أشياء الملكة الخاصة حتى الإبرة النحاسية التى كانت وصيفات الملكة يخطن بها ثياب سيدتهن . كانت كل هذه الأشياء هدايا من زوجها الملك سنفرو وابنها الملك خوفو وهى مصدرنا الأوحيد

لمعرفة حياة الرفاهية التي عاشها الملوك في عصر الأهرام^(١) وهي تكشف لنا عن صفحة من الفن والحياة في قصور الملوك في عصر يسبق الملك «توت عنخ أمون» بأكثر من ألف وخمسمائة سنة .

وكان رجال البلاط يحيون حياة رفاهية لا تكاد تقل عن حياة أفراد العائلة الملكية . ففي مقابر هؤلاء الرجال مناظر جميلة تمثل الواحد منهم وهو يجلس في الهودج عائداً إلى منزله بعد أن تفقد أحوال أملاكه ، وقد حمله أرقاؤه إلى الحديقة التي أمام منزله . وها هم يضعون الهودج على الأرض ويتوقفون عن الغناء^(٢) ، ثم تتقدم زوجته لتحيته وتأخذ مكانها إلى جواره ، فهي زوجته الوحيدة ولها مقام عظيم وتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها زوجها . وحديقة المنزل جنة الوحيه ، وأحب الأماكن إلى قلبه ، وفيها يستطيع أن يستجم ساعة من ساعات فراغه مع عائلته وأصدقائه يلعب السبيجة أو يستمع إلى أنغام القيثارة الذي تمسك به زوجته أو إلى فرقة مكونة من ثلاث آلات موسيقية هي القيثارة والمزمار والعود ، أو ينظر إلى النساء اللاتي يرقصن أمامه تلك الرقصات البطيئة الوقورة التي كانت سائدة في ذلك العصر . وفي تلك الإثناء يمرح أطفاله بين الأشجار أو يخوضون في البركة التي في الحديقة يطاردون مافيا من سمك ، وأحياناً يلعبون بالكرة أو بالعرائس أو يعبون « النطة » أو يعاكسون القرد الأليف الذي يحتمي منهم بالكرسی ذي الأرجل المصنوعة من العاج الذي يجلس عليه أبوه .

ولن نستطيع أن نعرف معرفة تامة جميع المؤثرات التي رفعت الناس في أوائل

١ - انظر مقالات رينر (G.A. Reiser) في مجلة Bulletin of the Boston Museum of Fine Arts, May, 1927, Supplement to Vol. XXV, Vol. XXVI (٤٥٢٨) pp. 76-88; Vol. XVII (1929), pp. 83-90; Vol. XXX (1932), pp. 55-60.

٢ - هذه الأغنية وأمثالها مسطورة على جدران المقابر في ذلك العصر.

عصور التاريخ من الهمجية والغرائز الحيوانية إلى اللطف والمجاملة ، ولكن هنا في مصر حيث نرى من المناظر المرسومة على آثارها ، أول المناظر للحياة العائلية يمكننا القول بأن الفترة الطويلة التي يعتمد فيها الأطفال الذين لا حول لهم على معونة وحماية أبيهم وأُمهم ، كانت لها تأثير في تهذيب همجية الإنسان الذي عاش في العصور المبكرة وتحويلها إلى رغبة واهتمام عاطفى لأسعاد الزوجة والأطفال . وهذه المناظر العاطفية التي تأخذ باللبابنا عندما نراها مرسومة على الآثار المصرية ، توضح لنا تلك النتيجة السعيدة التي وصل إليها الإنسان بعد عصر طويل .

وفضلاً عن ذلك فإن النقوش التي في مقابر ذلك العهد السحيق توضح لنا كيف كان المجتمع يعترف بأن حق الفرد في تلقيه بأنه حسن الخلق يتوقف على أخلاقه والروح التي يعامل بها عائلته أى أباه وأمه وإخوته وأخواته . وكثيراً ما نقرأ في مقابر هؤلاء الوجاهة عندما يريدون تلخيص جميع ما فيهم من صفات حميدة : « كنت شخصاً يحبه أبوه وتعزه أمه ، وكان إخوته وأخواته يحبونه ، ولكن في الوقت ذاته نرى أن الأخلاق الحسنة لم تقتصر على البر بالأهل فقط بل اتسعت هذه الدائرة في عصر الأهرام وأصبحت تشمل البر بالجيران بل وبجميع من عاش في المنطقة . وكان هؤلاء الناس الذين عاشوا منذ ٥٠٠٠ سنة أو ٥٠٠٠ سنة يكررون مرة بعد أخرى أنهم لم يقتربوا إثماً ، لأنهم اعتقدوا بأن الاستقامة الخلقية كانت ضرورية في نظر الآلهة ولها أثرها فيما يتوقع أن يلاقه الإنسان من سعادة في حياته التي سيحبهاها بعد الموت . وها هو « حر خوف » أحد وجهاء جزيرة أسوان (جزيرة الفنتين) والذي قام برحلات استكشافية في السودان في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد يشرح لنا السبب الذي جعله يحيا حياته المثالية : « لقد أردت أن يكون الأمر خيراً بالنسبة إلى في حضرة الآله العظيم » . كان أمثال هذا الوجيه يدركون تماماً أنه كانت عليهم واجبات رفيعة ، وها هي إحدى حكم الوزير العظيم « بتاح حتب » :-

طوبى للرجل الذى يجعل الحق رايته ويسير وراءها دائماً ، ولقد كان قدماء المصريين لا يفكرون فى الجمال إلا إذا قرنوه بالخلق الطيب . وقد نمت هاتان الصفتان معاً فى وسط التنعم والترف .

وكثيراً ما كان يجلس أمثال هذا الوجيه فى الحديقة واضعاً إحدى يديه على رأس كلبه ويشير بيده إلى رئيس البستانين مصدراً إليه تعليماته بشأن الخس الطازج الذى يريد أن يأكل منه فى المساء فى بيته الفسيح المريح المبني من الطوب اللبن والخشب . وكان مثل ذلك البيت بسيطاً راعى فيه من بناءه أن يكون ملائماً للجو ، يجرى فيه دائماً النسيم ، وله نوافذ فى كل جانب ، وجدران قاعات الاستقبال تكاد تكون إطارات فيها ستائر زاهية الألوان يتركونها ملفوفة ولا ينشرونها إلا عند الضرورة لحمايتهم من الرياح أو العواصف الرملية . وأعطى هذا التنظيم للسكن مظهراً لطيفاً تراحإليه النفس وجعل منه تحفة فنية ترينا كيف كان المصرى القديم يحب أن يرى نفسه محاطاً بالجمال ، وكيف استطاع أن يجعل أشياءه المفيدة الضرورية له جميلة جذابة .

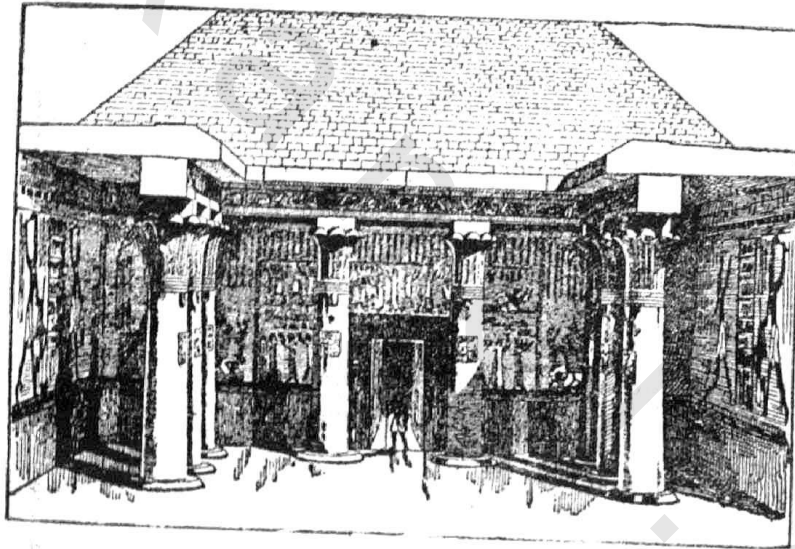
وعندما يجلس هذا الوجيه ومعه زوجه وأصدقائه إلى العشاء فإن الجمال يحيط به من كل ناحية ، فكانت يد ملعقته مزخرفة برسم زهرة اللوتس ، وكان النبذ يتلألأ فى كأس شرابه ، وكان أزرق اللون يشبه زهرة اللوتس أيضاً ، وكانت أرجل كرسبه الذى يجلس عليه أو الأريكة التى يلقى نفسه عليها للاستجمام مصنوعة على شكل أيدى وأرجل الأسد أو الثور . أما القاعة التى كان يجلس فيها فكان سقفها ملوناً باللون الأزرق كالسما تسبح فيها النجوم ، ويحمل هذا السقف أعمدة على هيئة جذع النخيل يزين الجزء العلوى منها ما يمثلى الجريد . وكان هذا الجزء مصنوعاً من الخشب وملوناً باللون الأخضر الداكن ليكون شبيهاً بالطبيعة . وأحياناً كانت أعمدهم شبيهة بساق زهرة اللوتس ، ترتفع من الأرض لتحمل هذا السقف الفيروزى

اللون فوق أزهارها المفتحة . وكثيراً ما كانوا يضيفون رسم بعض الحمام أو الفراشات إلى رسم النجوم في سقف القاعة . وكذلك زينوا الأرضية بمناظر شديدة الخضرة تمثل نباتات متعددة يتخللها الماء ويسبح فيها السمك بين أعواد القصب المتمايلة . ونرى هناك أيضاً رسم الثور الوحشى وهو ينظر إلى الطيور التى تزقزق وهى تطير فوق تلك النباتات محاولة أن تخيف ابن عرس إذا جاء يتلصص ليلتهم ما فى أعشاشها . ولولا وجود الفنانين المتمرنين ، لما أمكن رسم أمثال تلك المناظر على جدران المقابر . وفى مقبرة منها نرى الرسام الذى نقش المقبرة قد رسم نفسه جالساً إلى مائدة مع غيره من الموظفين الذين يعملون فى دائرة الوجيه . لقد نجح أمثال هذا الفنان فى تلوين مناظرهم ، وجعلوا المظهر العام للحائط أو للحجرة مقبولا وجيلا . ويثبت لنا نجاحه فى التكوين أنه كان ذكياً مرحاً ، ولكنّه لم يأبه بقواعد الرسم المنظور ولم يعرفها فى رسومه . وكان يستوى لديه فى الحجم المناظر البعيدة أو التى على مسافة متباعدة مع تلك التى أمامه .

وكان أهم الفنانين فى ذلك العصر هم المثالون الذين كانوا ينحتون من الخشب أو الحجر تماثيلهم ويلونونها لتصبح أكثر محاكاة للأصل . وكانوا يضعون فى مكان العين بلوراً صخرياً يشع دائماً بنور الحياة . كانت هذه التماثيل صورة صادقة لأصحابها ووصل فيها الفنانون إلى مستوى رفيع من الإتقان لم يصل إليه فنانون آخرون فيما بعد ، مع أنها أقدم التماثيل التى جاءت مطابقة لصورة أصحابها فى تاريخ الفن .

وتماثيل الملوك كانت رائعة فى أغلب الأحيان ، وكانت توضع عادة فى معابد الأهرام . وأضخم ما صنعت يد المثال فى عصر الأهرام هو تمثال « أبو الهول » فى جبانة الجيزة ورأسه على شكل رأس الملك خفرع باني الهرم الثانى ، والتمثال كله نحت فى تنوء من الصخر على مقربة من المدينة الملكية .

أشرنا قبل الآن إلى جمال المباني التي أقامها « أنحوتب » . وقد تلا ذلك خطوة هامة في فن العمارة نراها واضحة في أعمدة وجدران معبد الوادى الخاص بالملك خفرع ، وهو الذى يقع إلى جوار « أبو الهول » . وكان الضوء يدخل إلى الهيولى الكبير في هذا المعبد من عدد من الفتحات المائلة على مقربة من السقف . وكان السقف الجزء الأوسط من الهيولى أكثر ارتفاعاً من السقف الذى على الجانبين . وكان النور يدخل من فتحات في الجزء الذى بين السقفين ، ونقل اليونان والرومان هذا النوع من تنظيم الأبناء عن المصريين ، وعنه اقتبس المعماريون في العصر المسيحى



شكل : ٣١ - أعمدة في ردهة أحد معابد الاهرام

نرى في هذا الرسم أن الردهة كانت غير مسقوفة في الوسط وكانت جوانبها فقط محمولة على سقف مقام على أعمدة من نوع الأعمدة النخيلية ذات التيجان على شكل الجريد . وكانت هذه الردهة بما في ذلك الجدران التي خلفت الأعمدة ملونة بألوان زاهية طبيعية

واستعملوه في بناء السقف والنوافذ في الجزء الأوسط من الكنائس المقامة على طراز البازيليكا (basilica) وفي الكاتدرائيات . وهكذا كان الهيولى الجرانيتى

في معبد خفرع الأصل الذي نقل عنه أهم أنواع العمارة المسيحية الذي انتشر في أوروبا بعد عهد خفرع بأكثر من ثلاثة آلاف سنة .

ويحس الزائر لمعبد خفرع بضخامة وعظم وزن الأعمدة ، ولكن لم يكدر قرن واحد حتى أخذ المعمار يون المصريون يفضلون الرشاقة على العظمة ، وبدلاً من أن يقيموا تلك الأعمدة المربعة الثقيلة الوزن ، فإنهم فضلوا استعمال أعمدة مستديرة رشيقة النسب خفيفة الوزن ذات تيجان جميلة ، شبيهة بطراز سبق أن رأيناه في مباني « أمحوتب » ، وكانوا يبنون هذه الأعمدة في صفوف ، وبهذا كانوا أول شعوب العالم في بناء الأبنية القائمة على الأعمدة .

ولم تلبث هذه الأشياء النافعة الجميلة أن شقت طريقها من مصر عبر البحر الأبيض المتوسط إلى أوروبا ، وعن طريق البر إلى غرب آسيا . وكان الفضل في ذلك للصلة التجارية التي حملت معها هذه الأشياء .

وسنرى فيما بعد أن غرب آسيا كان يتقدم بدوره نحو الحضارة خطوات تثير الدهشة ، وبدأت حضارته تترك لنفسها أثراً في مصر ، وكان للتجارة أثرها أيضاً في



شكل : ٣٢ - أقدم رسم لسفينة بحرية (القرن السادس والعشرون ق م)

أحد المناظر في معبد هرم الملك « ساحورع » . وفيه نرى جميع من في السفينة يرفعون أذرعهم وينحنون لتحية الملك الذي كان واقفاً على الشاطئ ولكن قد تهشم الآن ، وارتفعت أصواتهم بالدعاء له . وفي السطر الذي فوقهم : « التحيات لك يا ساحورع ياملك الأحياء ، أننا نمتع أنظارنا بجمالك » . ونرى بين ركاب السفينة بعض الأسرى الفينيقيين الذين كانوا على ظهرها ، وكانت هذه السفينة واحدة من ثمانية ذهبت إلى الطرف الشرقي من البحر الأبيض ثم عادت سالمة ، وأنزل بحارتها الصاري الكبير المزدوج . وأصبح هذا النوع من السفن شائعاً بعد ذلك في البحر الأبيض المتوسط ، وانتشر في جميع البحار بين إيطاليا والهند .

الاتصال بين غرب الدلتا وكريت . ويجب ألا يغيب عن أذهانتنا أن ملوك مصر بدأوا هذه الصلات الخارجية وخاصة ما كان منها بطريق البحر قبل عصر الأهرام بقرون عديدة .

ولم يقف نشاط الملوك عند حد إرسال السفن التجارية وحملات التعدين إلى سيناء بل كانوا يرسلون أيضاً حملات إلى السودان لتتجر مع أهل الجنوب ، وكانت تفرغ البضائع على ظهور الحمير وتعود محملة بعد ذلك بالأبنوس والعاج وريش النعام وأنواع البخور ، وكان يذهب على رأس تلك الحملات موظفون لدى الملك رويت أخبار رحلاتهم على واجهات مقابرهم في أسوان ، وفيها الكثير من مخاطرهم بين القبائل غير المتمدينة في الجنوب التي كلفت بعضهم حياتهم . وهوؤلاء الرحالة هم أقدم من استكشف داخل القارة الأفريقية ^(١) ، وحاول معرفة الطرق الموصلة إلى المجهول من أرجائها .

وكان اسطول الملك ينزل أيضاً إلى البحر الأحمر ليصل إلى بلاد دانت ، عند باب المندب حيث كان يجد أيضاً حاصلات السودان فتعود بها السفن عن طريق البحر .

وتدلنا عظمة حضارة المصريين في عصر الأهرام على أن الحياة العامة كانت منظمة تحت حكم أولئك الملوك ، ولكن وجاء البلاد أخذوا يقوون حتى جاء اليوم الذي لم يعد للملك السلطة التامة عليهم ، وأصبحت الحكومة المركزية في حالة تفكك شديد ، ولم يأت منتصف القرن الثالث والعشرين ق . م وإلا وأصبحت البلاد مفككة الأوصال ، وانقسمت إلى مجموعات من الإمارات

الصغيرة ، وبهذا انهار ذلك البنيان الذى ظل فترة طويلة ، وعادت حاله البلاد إلى ما كانت عليه قبل اتحادها .

كان ذلك العصر المبكر فى مصر فترة إنتاج غير عادية لشعب فى فتوته وجد لأول مرة من ينظمه فأخذ ينتج ويتقدم ماشاء له مقدرته ونشاطه ، وأصبحت مصر بعدها فى مفترق الطرق فإما الوصول إلى انهيار السلطة المركزية وإفناء قوى الشعب بسبب التطاحن بين الحكومة وأمراء الأقاليم وإما بلوغ المصريين حلا يهيء للبلاد وحدتها مرة أخرى ويجعلها تستمر فى تطورها الثقافى ، وسنرى فى الفصل القادم كيف خرجت مصر من هذه الأزمة .